التفسير النبوي

الأستاذ الدكتور
محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
كلية القرآن الكريم، جامعة الأزهر

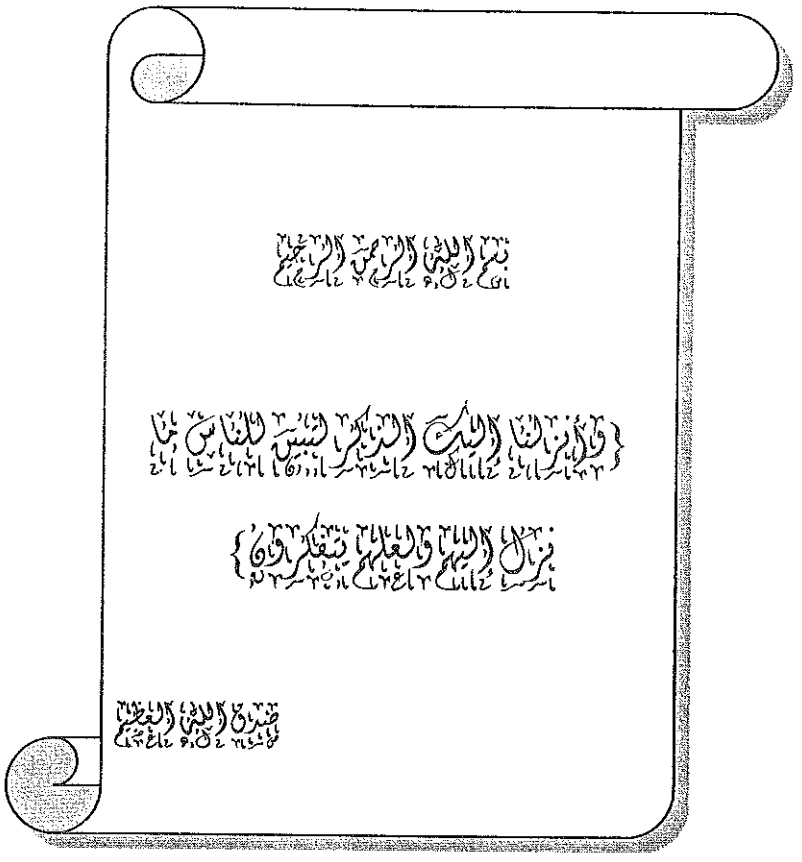
بسم الله الرحمن الرحيم
{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما
نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}
صدق الله العظيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خير الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ، خاطبه ربه ﷻ بقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١]، فتنزل عليه جبريل عليه السلام بالسنة كما تنزل عليه بالقرآن؛ ليقوم بمهمة تبيينه[٢]. **أما بعد:** فأشرف صناعة يتعاطاها الإنسان هي تفسير القرآن الكريم؛ لأن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها، وإما بشرف غرضها، وإما لشدة الحاجة إليها، وصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث[٣]: **أما من جهة الموضوع؛** فلأن موضوعه كلام الله تعالى، الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة. **وأما من جهة الغرض؛** فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى. **وأما من جهة شدة الحاجة إليه؛** فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

ولهذا قال ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٤]، وكان ﷺ أول من حاز هذه الخيرية، حيث كان أول متعلم وأول معلم لأصحابه الذين نقلوا أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أحد منهم أنه ﷺ قد امتنع من تفسير آية احتاجوا إلى تفسيرها[٥].

وقد حرصوا كل الحرص على تلقي هذا التفسير؛ لأنهم أدركوا أن تعلم

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٣٠٥/١٣.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٢٤/٢.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٣٣١/٣ (٥٠٢٧).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٠٨/١٣.

معاني القرآن هو المقصود الأول بتعلم حروفه[١]، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات؛ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن»[٢]، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك» [٣].

وكانوا يسألونه ﷺ حين تخفى عليهم معاني بعض العبارات القرآنية، أو يحدث الإشكال في عقولهم بسببها، فيوضح ﷺ لهم ما خفي عليهم، ويزيل الإشكال الطارئ على عقولهم.

ونتيجة لذلك وجدت ثروة تفسيرية اعتبرها شيخ الإسلام ابن تيمية من أحسن طرق تفسير القرآن الكريم، فقال: « فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟، فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك: أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان؛ فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان، فقد بسط في موضع آخر، فإنه أعياك ذلك؛ فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له» [٤].

وقد اهتم أئمة التفسير بهذه الثروة التي خلفها لنا رسول الله ﷺ، وأدركوا القيمة العلمية السامية التي تتمتع بها، فضلا عن القيمة الروحية التي تضفى عليها ثياب الجلال والجمال والكمال، فأكثروا من إيرادها في كتبهم التي يغلب عليها طابع المأثور، ولم يغفلوها في الكتب التي يغلب عليها طابع الرأي.

---

(١) انظر: المصدر السابق ٤٠٣/١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١.

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب التناوب في العلم ٦٨/١ (٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٦٣/١٣.

ولهذا رأيت من الأهمية بمكان أن أقوم بدراسة بعض القضايا المتعلقة بهذه الثروة التفسيرية لإبراز قدرها، وأهميتها، ودورها الجليل في تبيين القرآن الكريم، **وقد تكونت هذه الدراسة من المباحث الآتية:**

المبحث الأول: مدلول التفسير.

المبحث الثاني: هل فسر الرسول ﷺ القرآن الكريم؟

المبحث الثالث: أسباب تفسيره ﷺ للقرآن الكريم.

المبحث الرابع: حجية التفسير النبوي.

المبحث الخامس: المقدار الذي فسره الرسول ﷺ من القرآن الكريم.

المبحث السادس: أثر التفسير النبوي على النص القرآني.

المبحث السابع: مجالات التفسير النبوي.

وأتبعت هذه المباحث بخاتمة أوضحت فيها أهم نتائج الدراسة، ثم ذكرت المراجع التي اعتمدت عليها بعد الله سبحانه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

* * *

المبحث الأول
مدلول التفسير

من الضروري قبل الخوض في غمار مسائل هذا البحث أن نتعرف على مدلول التفسير في اللغة وفي الاصطلاح، وأن نبين مدى المناسبة بين المدلولين.

أولاً: مدلوله في اللغة[١]:

التفسير تفعيل من الفَسْر بمعنى الإبانة والكشف والإيضاح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [٢]، أي وأفصح بياناً وتفصيلاً[٣]. ويمكن أن يكون التفسير مقلوبًا من السَّفر – بتقديم السين على الفاء – ومعناه أيضًا: الإظهار والإبانة، يقال: أسفر الصبح، إذا أضاء، ففيه معنى الإظهار والكشف، وسفرت المرأة سفورًا، إذا كشفت عن وجهها، قال الراغب: «الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما؛ لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول... وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار؛ فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح»[٤]. وقيل: أصل التفسير «من التفسرة؛ وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض؛ فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذي أنزلت فيه، وكأنه تسمية بالمصدر؛ لأن مصدر «فَعَّل» جاء أيضًا على «تفعلة»، نحو: جَرَّب تجربة... وإنما بنوه على التفعيل؛ لأنه للتكثير، كقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [٥]، ﴿وَغَلَّقَتِ

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة : ف س ر.

(٢) سورة الفرقان: ٣٣.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤/٢١٠.

(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب، مادة : ف س ر.

(٥) سورة البقرة: ٤٩.

ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ [١]، فكأنه يتبع سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى»[٢].

ثانيًا: مدلوله في الاصطلاح:

تعددت أساليب العلماء في بيانهم لمدلول التفسير في الاصطلاح:

فقد عرفه العلامة أبو حيان الأندلس بأنه «علم يبحث فيه كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية[٣]، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب[٤]، وتتمات لذلك [٥]»[٦].

وعرفه الإمام الزركشي بأنه «علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[٧].

وعرفه بعضهم بأنه «علم نزول الآيات، وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها

---

(١) سورة يوسف: ٢٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٤٧/٢.

(٣) يشير رحمه الله بأحكامها الإفرادية والتركيبية إلى علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البديع، وعلم البيان.

(٤) قوله: «ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز.

(٥) وتتمات لذلك: مثل معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما أبهم في القرآن، ونحو ذلك: انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٢٢/٢.

(٦) البحر المحيط لأبي حيان ١٢١/١.

(٧) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٣/١.

وأمثالها»[١].

وعرفه العلامة الزرقاني بأنه «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية»[٢]. وزاد بعضهم على هذا التعريف عبارة: «ومن حيث كونه المعجزة العظمى لنبينا محمد ﷺ»[٣].

ثالثًا: المناسبة بين المدلولين:

مما لا شك فيه أن المناسبة بين المدلول اللغوي والمدلول الاصطلاحي لكلمة التفسير واضحة وجلية؛ لأن مدلولها اللغوي يدور على معنى التوضيح والإبانة والظهور بعد الخفاء، ومدلولها في الاصطلاح يدور على نفس المعنى، وإن كان التعريف الأخير قد اشتمل على عبارة في غاية الأهمية، وهي: «بقدر الطاقة البشرية» فهذه العبارة تبين أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بكل ما استأثر الله تعالى بعلمه من آيات القرآن الكريم، ولا عدم العلم بمراده سبحانه في الواقع ونفس الأمر[٤].

ولهذا لا يمكن لأي مفسر أن يقطع عند تفسيره لشيء في القرآن الكريم بأن هذا مراده سبحانه، إذ لا يتأتى هذا القطع إلا بالوحي الإلهي على لسان النبي ﷺ.

وعبارة «ومن حيث كونه المعجزة العظمى لنبينا ﷺ» في غاية الأهمية أيضا؛ لأنها تضيف هدفًا أساسيًا لا ينبغي أن يغفل المفسر عنه وهو يجتهد لبيان مراد الله تعالى، وهو إثبات أن القرآن الكريم معجزة نبينا محمد ﷺ.

وبهذا لا ينحصر غرض المفسر من فهم الآيات القرآنية والعلم بها في العمل بمقتضى الأحكام والتوجيهات التي تشتمل عليها، بل يتجاوز ذلك إلى

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٢٢٢.
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/٤.
(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة ص ٢٦.
(٤) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/٥.

إدراك نواحي الإعجاز في هذه الآيات إدراكًا يزيد من حرصه على العمل بها، ويدفعه للعيش في رحابها، وحمل عبء تبليغها للناس، بلاغًا تقوم به الحجة، وتنقطع على إثره المعذرة.

وبناءً على ما سبق أرجح تعريفًا جامعًا للتفسير، مقتبسًا من التعريفات السابقة، وخلاصته: التفسير: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، ومن حيث كونه المعجزة العظمى لنبينا محمد ﷺ، استمدادًا من علوم متعددة، ومتجددة، بقدر الطاقة البشرية.

* * *

المبحث الثاني

هل فسر الرسول ﷺ القرآن الكريم؟

الناظر في كتب التراث الإسلامي عمومًا، وكتب التفسير بالمأثور[1] خصوصًا يدرك أن الرسول ﷺ كان يفسر القرآن الكريم لأصحابه رضوان الله عليهم، ويرتفع هذا الإدراك إلى مستوى اليقين بالنظر في كتب السنة التي اقتصرت على جمع ما صح من الروايات المأثورة عنه ﷺ في تفسير بعض النصوص القرآنية، وقد جُمعت هذه الروايات في أبواب أو كتب للتفسير ضمن هذه الكتب، فقد اشتمل كتاب التفسير في صحيح الإمام البخاري «على خمسمائة حديث وثمانية وأربعين حديثًا»[2] منها ما جاء في باب قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[3] من أن النبي ﷺ قال يوم الخندق: «حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ

---

(١) من هذه الكتب: جامع البيان للطبري، وزاد المسير لابن الجوزي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والدر المنثور للسيوطي.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٦١٦/٨.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٨.

الله قبورهم وبيوتهم - أو أجوافهم - نارًا»[١].

ومنها: ما جاء في باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[٢] عن أبي بكرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض[٣]، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر[٤] الذي بين جمادى وشعبان»[٥].

وكذلك اشتمل كتاب التفسير في آخر صحيح الإمام مسلم على ثلاثين حديثًا، منها قوله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾[٦]، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا حبة في شعرة»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ ٣/ ١٥٠ (٤٥٣٣).

(٢) سورة التوبة: ٣٦.

(٣) الكاف في «كهيئته» صفة مصدر محذوف تقديره: استدار استدارة مثل صفته يوم خلق السماء، والمراد بالزمان السنة، والمراد باستدارته: وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار. انظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٣٤٠، ٨/ ١٧٥.

(٤) أضافه إلى مضر؛ لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه، بخلاف غيرهم، فيقال: إن ربيعة كانوا يجعلون بدله رمضان، وكان منهم من يحل رجب ويحرم شعبان، ووصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيد. انظر: فتح الباري لابن حجر ٨/ ١٧٦.

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ٣/١٩٣، ١٩٤ (٤٦٦٢).

(٦) سورة البقرة:٥٨.

(٧) أخرجه مسلم في كتاب التفسير ٤/ ٢٣١٢ (١) عن أبي هريرة ﷺ.

بل إن بعض الروايات المأثورة عنه ﷺ في تفسير بعض النصوص القرآنية جاءت في أبواب أخرى غير باب التفسير، ومثال ذلك: ما أخرجه مسلم في كتاب الإمارة عن عقبة بن عامر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: « ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1]، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[2].

وفضلاً عن كتب السنة التي اقتصرت على جمع ما صح عنه ﷺ في تفسير القرآن الكريم؛ اشتملت كتب السنة التي جمعت الصحيح والحسن والضعيف على روايات متعددة فسر فيها الرسول ﷺ نصوصًا قرآنية متعددة، ومثال ذلك: ما أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان؛ فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك؛ فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك، فليعلم أنه من الله؛ فليحمد الله، ومن وجد الأخرى؛ فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[3]»[4].

كما تضمنت كتب التاريخ والسير روايات متعددة فسر فيها الرسول ﷺ - أيضًا- نصوصًا قرآنية متعددة، ففي كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» قال الرسول ﷺ: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري؛ هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئًا، فنظرت عن يساري، فلم أر شيئًا، فنظرت خلفي، فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي، فرأيت شيئًا بين السماء والأرض؛ فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبوا على ماءً

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه ٣/ ١٥٢٢ (١٦٧).

(٣) سورة البقرة: ٢٦٨.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٤/٤٦٤ (٢٩٩٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

باردًا، فدثروني وصبوا عليّ ماءً باردًا؛ فنزلت هذه الآيــة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ [١]»[٢].

وكذلك اشتملت كتب علوم القرآن الكريم على روايات متعــددة فســر فيهــا رسول الله ﷺ نصوصًا قرآنية متعددة، وأصدق شاهد على ذلك: قــول الإمــام السيوطي عقب ذكره لطبقات المفسرين في النوع الثمانين في الإتقان: «وإذ قــد انتهى بنا القول فيما أردناه من هذا الكتاب، فلنختمه بما ورد عن النبي ﷺ مــن التفاسير المصرح برفعها إليه، غير ما ورد من أسباب النزول؛ لتســتفاد، فإنهــا من المهمات»[٣] وعقب – رحمه الله – هذا القول بسرد روايــات فســر فيهــا رسول الله ﷺ نصوصًا قرآنية مختلفة، ومنها: قوله ﷺ في قوله تعــالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [٤]: «أن يطاع فلا يعصي، ويذكر فلا ينسى»[٥] ومنها: قولــه ﷺ : « إن من عباد الله ناسا يغبطهم الأنبياء والشهداء»، قيل: من هم يا رســول الله؟، قال: «قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، لا يفزعون إذا فــزع الناس، ولا يحزنون إذا حزنوا ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[٦]»[٧].

---

(١) سورة المدثر: ١: ٣.

(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس ١/١١٤، وأخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٣/٢٩٨ (٤٩٢٢) ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي ١/ ١٤٤ (٢٥٧).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٢٤٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٢٤٧، وعزاه إلى الحاكم الذي حكم بصحته.

(٦) سورة يونس: ٦٢.

(٧) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٢٥١، والحديث أخرجه أبو داود في البيوع، باب في الرهن ٣/٢٨٦، ٢٨٧ (٣٥٢٧) وألفاظه مختلفة اختلافا يسيرا.

أما أسباب النزول التي لا يمكن معرفة تفسير الآية بدونها كما قال الواحدي [١]؛ لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب كما قال شيخ الإسلام بن تيمية [٢]، فقد حفلت كتبها هي الأخرى بروايات فسر فيها رسول الله ﷺ نصوصا قرآنية.

جاء في أسباب النزول للواحدي أنه « لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ؛ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذي المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [٣]- يعني لا أدري أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أو لا -، ثم قال: إنما هو شيء رأيته في منامي، ما أتبع إلا ما يوحى إليّ»[٤].

وبهذا يتضح أن رسول الله ﷺ قد فسر لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم ما كانوا في حاجة إلى تفسيره من النصوص القرآنية.

* * *

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ١٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٣٣٩/١٣.

(٣) سورة الأحقاف: ٩.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣١٨ بدون إسناد.

المبحث الثالث
أسباب تفسيره ﷺ للقرآن الكريم

تفسير الرسول ﷺ للقرآن الكريم كان للأسباب الآتية:

أولاً: قيامه ﷺ بمهمته التبليغ التي كلفه الله عز وجل بها في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (١).

والتبليغ لا يمكن أن يكون على الوجه الأكمل إلا إذا تم تبيين وتوضيح المبلَّغ، فقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن المقصود الأول من تعليم حروف القرآن الكريم هو تعلم معانيه(٢) ولهذا قال ربنا سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣).

ثانيًا: أن القرآن الكريم «كلام متكلِّم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه، ولا إمكان للوصول إليه، بخلاف الأمثال والأشعار؛ فإن الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلم بأن يسمع منه، أو يسمع ممن سمع منه، أما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يُعلم إلا بأن يسمع من الرسول ﷺ»(٤)، ولذلك قام ﷺ بتفسيره، ولو لم يفعل لكان مثل الناس مع القرآن كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة؛ لأنهم لا يدرون ما في الكتاب (٥).

ثالثاً: أن القرآن الكريم يخاطب جميع الناس على اختلاف مداركهم، ولهذا يفهمه كل واحد منهم فهمًا يناسب طاقته ومستوى فكره، فإذا رغب

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤٠٣/١٣.
(٣) سورة النحل: ٤٤.
(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٦/١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٠/١.

في معرفة أكثر مما فهمه منه بطبيعته وطاقته؛ فليس أمامه إلا من هم أوسع منه معرفة وفهمًا؛ ليبصروه بما وراء الذي توقف عنده علمه من دلائل القرآن ومعانيه، وهل يمكن أن يوجد في بني الإنسان أحد أعلم بالقرآن من الرسول ﷺ ؟! اللهم لا، فقد قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [1]. والمقصود «بتعليم الكتاب: تعليم ألفاظ القرآن، وكيفية أدائه؛ ليتهيأ لهم بذلك إقامة عماد الدين، وبتعليم الحكمة: الإيقاف على الأسرار المخبوءة في خزائن كلام الله تعالى» [2]. ولهذا قال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» [3].

رابعًا: أن القرآن الكريم يستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى [4]، وقد اشتمل – رغم ذلك – على كل ما يحتاج إليه الناس في أمر الدين، وتضمن في الوقت نفسه سائر الأصول والقواعد التي تتأسس عليها حياة دنيوية آمنة، ولا شك أن كتابًا بهذه الطبيعة يحتاج إلى تفسير وشرح وبيان يصيب مراد من أنزله سبحانه، ولا يتأتى ذلك إلا إذا اقتبس هذا التفسير من نفس مصدر هذا الكتاب، وهل هناك من يقبس من هذا المصدر إلا رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى عنه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [5] ؟

خامسا: أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسألونه ﷺ حين تخفى

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ١١٤/٤.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة ١٩٩/٤ (٤٦٠٤) وأحمد في المسند ١٣٠/٤، ١٣١.

(٤) انظر: النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ص ١٢٧: ١٣٠.

(٥) سورة النجم: ٢:٥.

عليهم معاني بعض العبارات القرآنية، أو يحدث الإشكال في عقولهم بسببها، فقد أخرج البخاري في باب قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾[١] عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟، قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين»، ثم قال: «لا، بل هما سواد الليل وبياض النهار» [٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «ليس أحد يحاسب إلا أهلك »، قالت: قلت: يا رسول الله؛ جعلني الله فداك، أليس يقول الله ﷻ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[٣] ، قال: «ذاك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك»[٤].

وأخرج الترمذي عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [٥]، فقال: ما سألني عنها أحد غيرك إلا رجل واحد منذ سألت رسول الله ﷺ، سألت رسول الله ﷺ، فقال: «ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»[٦].

هذه هي أهم الأسباب التي فسر رسول الله ﷺ لأجلها نصوصًا من القرآن

---

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ، باب قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ ٣/١٤٥،١٤٤ (٤٥١٠).

(٣) سورة الانشقاق: ٧،٨.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ٣/٣٠٤، ٣٠٥ (٣٩٣٩).

(٥) سورة يونس:٦٤.

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب قوله: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ٤/١٢١، ١٢٢ (٢٢٨٠)، وفي كتاب التفسير ٥/٧٤ (٣١١٧) وقال: هذا حديث حسن.

الكريم، **فإن قال قائل**: إن الله ﷻ وصف قرآنه بأنه مبين، ووصف آياته بأنها بينات في مثل قوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢)فكيف نوفق بين هذين الوصفين وبين ما تدل عليه الأسباب السابقة من أن القرآن الكريم في حاجة إلى تفسير الرسول ﷺ وبيانه؟

فالجواب: أن وصف القرآن بأنه مبين إما أن يكون من (بان) اللازم بمعنى ظهر؛ فمعناه: الظاهر الإعجاز، وإما أن يكون من المتعدى (أبان)؛ فمعناه: المظهر للناس ما كان خافيًا عليهم(٣) وتحقق الوصفين للقرآن وآياته لا يتأتى إلا ببيان الرسول ﷺ؛ لأنه أوتي القرآن ومثله معه، بدليل قوله: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال؛ فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام؛ فحرام، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم، فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه؛ فله أن يعقبهم بمثل قراه»(٤).

فقوله: «أوتيت الكتاب ومثله معه» «يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما: أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الوحي الظاهر المتلو. **والثاني**: أنه أوتي الكتاب وحيًا يتلى، وأوتي من البيان مثله، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرح ما في الكتاب؛ فيكون في وجوب العمل به، ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن»(٥).

---

(١) سورة المائدة: ١٥.

(٢) سورة الحجر: ١.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ٩٨/٦.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨٥/١ بتصرف.

وبهذا يكون القرآن الكريم مبيناً، وآياته بينات ببيانه ﷺ ولهذا قال الإمام الشافعي: «جميع السنة شرح للقرآن»[١] وقال أيضًا: «جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن» [٢] وقال سعيد بن جبير: «ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه؛ إلا وجدت مصداقه في كتاب الله»[٣].

* * *

المبحث الرابع
حجية التفسير النبوي

إذا ثبت صحة الرواية المأثورة عن رسول الله ﷺ في التفسير وجب قبوله، والتسليم له، وعدم تقديم أي تفسير آخر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٤] يقول الإمام ابن القيم: «إن الله سبحانه نصب رسوله ﷺ منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما شرعه للأمة؛ فهو بيان منه عن الله تعالى أن هذا شرعه ودينه، ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو، ومن وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا كمخالفة هذا»[٥] ولهذا حذر الله عز وجل من مخالفة أمره ﷺ، فقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٦] ولم يبح لمؤمن ولا مؤمنة أن يعصيا أمره ﷺ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١٦٠.
(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١٦٠.
(٤) سورة الحشر: ٧.
(٥) إعلام الموقعين لابن القيم ٢/٢٣٨.
(٦) سورة النور: ٦٣.

ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (١).

قال الإمام الشاطبي: «السنة توضح المجمل، وتقيد المطلق، وتخصص العموم، فتخرج كثيرًا من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها في أصل اللغة، وتعلم بذلك أن بيان السنة هو مراد الله تعالى من تلك الصيغ، فإذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى؛ صار صاحب هذا النظر ضالاً في نظره، جاهلاً بالكتاب، خابطًا في عمياء، لا يهتدي إلى الصواب فيها، إذ ليس للعقول من إدراك المنافع والمضار في التصرفات الدنيوية إلا النزر اليسير، وهي في الأخروية أبعد على الجملة والتفصيل»(٢).

ولهذا جعل الله عز وجل من لوازم إيمان المؤمنين أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه ﷺ إلا باستئذانه، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (٣) «فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه؛ أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه»(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ؛ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة»(٥) وقال أيضًا: «ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٦.

(٢) الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي ٤/١١.

(٣) سورة النور: ٦٢.

(٤) إعلام الموقعين لابن القيم ١/٤٢، ٤٣.

(٥) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٢٧.

وتنسخها، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن، وتدل عليه، وتعبر عنه»[١].

ومعلوم أن في القرآن الكريم مالا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيانه ﷺ، فلا يجوز لأحد غيره أن يقول فيه إلا بنص منه ﷺ، أو بدلالة قد نصبها في سنته [٢]، وقد نصّ الإمام الشافعي على أن سنته ﷺ موجودة عند عامة أهل العلم، وإن كان بعضهم أجمع من بعض، ولكن إذا جمع علمهم أتى عليها كلها[٣] وهذا هو مقتضى الحفظ الذي وعد الله ﷻ به في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [٤].

قال الإمام ابن حزم: «لا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله، فهو ذكر منزل، فالوحي كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه، فمضمون أن لا يضيع منه، وأن لا يحرف منه شيء أبدًا، تحريفًا لا يأتي البيان ببطلانه»[٥] ورد على من ادعى أن الذكر في الآية يراد به القرآن وحده قائلاً: «هذه دعوى كاذبة مجردة من البرهان، وتخصيص للذكر بلا دليل... والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ من قرآن أو من سنة وحي يبين بها القرآن، وأيضا فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٦]، فصح أنه ﷺ مأمور ببيان القرآن للناس، وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج، وغير ذلك مما لا نعلم، ما ألزمنا الله

---

(١) المصدر السابق ١٣/ ٢٩.
(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١/٢٥، ٢٦.
(٣) انظر: الرسالة للشافعي ص ٤٣.
(٤) سورة الحجر: ٩.
(٥) إحكام الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/ ١١٧.
(٦) سورة النحل: ٤٤.

تعالى فيه بلفظه، لكن ببيان رسوله ﷺ، فإذا كان بيانه ﷺ لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه، فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه»[١].

بناء على ذلك حرص الأئمة الأعلام أصحاب الموسوعات التفسيرية على تقديم كل قول في التفسير صحت نسبته إلى رسول الله ﷺ على سائر الأقوال التي تنسب إلى غيره، ففي تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [٢] قال الإمام ابن الجوزي: وفي الكوثر ستة أقوال: **أولها:** أنه نهر في الجنة؛ لقول الرسول ﷺ: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر»[٣]. **والثاني:** أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ. **والثالث:** العم والقرآن. **والرابع:** النبوة. **والخامس:** أنه حوض رسول الله ﷺ الذي يكثر الناس عليه. **والسادس:** أنه كثرة أتباعه وأمته[٤].

ولم يقف بعض الأئمة عند حدّ تقديم قوله ﷺ على أقوال غيره؛ بل صرح بتعين المصير إليه، وعدم التعويل على أقوال سواه، فقد أورد الإمام الشوكاني الأحاديث المرفوعة إليه ﷺ في هذا الشأن، ثم قال: «فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة، فيتعين المصير إليها، وعدم التعويل على غيرها»[٥]. وقال الإمام أبو حيان: «والصحيح هو ما فسره به رسول الله ﷺ»[٦].وتعجب الألوسي ممن يعدل عن تفسير

---

(١) إحكام الأحكام لابن حزم ١/ ١١٨.

(٢) سورة الكوثر: ١.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الكوثر ٣/٣١٥، ٣١٦ (٤٩٦٤).

(٤) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٢٤٧: ٢٤٩، والقول الثاني الذي ذكره منسوب لابن عباس، والثالث للحسن، والرابع لعكرمة، والخامس لعطاء، والسادس لأبي بكر بن عياش.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥/٧٣١.

(٦) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٥٢٠.

الرسول ﷺ الذي ثبتت صحته إلى تفسير آخر، فقال: «بعد أن صح الحديث في ذلك، بل كاد يكون متواترًا، كيف يعدل عنه إلى تفسير آخر»[١]. والإمام القرطبي كان يكتفي - أحيانًا - بذكر المأثور عن رسول الله ﷺ في تفسير آية من الآيات، فقد قال في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٢]: «في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مما أضحك؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل»[٣]. وذكر رحمه الله أيضًا قوله ﷺ: «تحشرون هاهنا، وأومأ بيده إلى نحو الشام، مشاة وركبانًا، وعلى وجوهكم، تعرضون على الله تعالى، وعلى أفواهكم الفدام، وأول ما يعرب عن أحكم فخذه»[٤] والفدام: مصفاة الكوز والإبريق، يعني أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم، فشبه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق[٥].

بل إن الإمام محمد عبده - أحد رواد المدرسة العقلية الحديثة - كان يصحح - أحيانًا- في تفسيره لآية من الآيات القول الذي يستند إلى رواية صحت نسبتها إلى الرسول ﷺ، فقد قال في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٤٥/٣٠.

(٢) سورة يس: ٦٥.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٢٨٠/٤، ٢٢٨١ (١٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٦٨٦/٨ بتصرف.

حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [١]: «وللعلماء في ذلك ثمانية عشر قولاً أوردها الشوكاني في نيل الأوطار، أصحها رواية ما ذهب إليه الجمهور من كونها صلاة العصر، لحديث: «حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم - أو أجوافهم - نارًا»[٢]، ولولا أنهم اتفقوا على أنها إحدى الخمس؛ لكان يتبادر إلى فهمي من قوله: ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ أن المراد بالصلاة: الفعل، وبالوسطى: الفضلى، أي حافظوا على أفضل أنواع الصلاة، وهي الصلاة التي يحضر فيها القلب، وتتوجه بها النفس إلى الله تعالى، وتخشع لذكره، وتدبر كلامه، لا صلاة المرائين، ولا الغافلين»[٣].

وليس في هذا الصنيع ما يدل على أن الإمام محمد عبده قد جعل من هذا المسلك منهجًا له في تفسيره، إذ تدل شواهد كثيرة على رفضه لروايات في التفسير صحت نسبتها إلى الرسول ﷺ.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾[٥] قال تلميذه محمد

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٤٣٧/٢، ٤٣٨ بتصرف.

(٤) سورة البقرة : ٥٨، ٥٩.

(٥) سورة الأعراف: ١٦١، ١٦٢.

رشيد رضا: «ولا ثقة لنا بشيء مما روي في هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية، فكله من الإسرائيليات الوضعية، كما قاله الأستاذ الإمام هنالك، وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعًا»[١]. ويقصد رشيد رضا بقوله: «كما قاله الأستاذ الإمام هنالك» رفض الإمام – عند تفسيره لآية سورة البقرة – للروايات المأثورة عن الرسول ﷺ، ومنها قوله المروي في صحيح مسلم: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡ ﴾ ، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة في شعرة»[٢].

فقد قال الإمام محمد عبده هنالك: «وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها، وكلمة يقولونها، وتعبدوا بذلك، وجعل سببًا لغفران الخطايا عنهم، فقالوا غيره، وخالفوا الأمر، وكانوا من الفاسقين، وأي شيء أسهل على المكلف من الكلام يحرك به لسانه، وقد اخترع أهل الأديان من ذلك ما لم يكلفوا قوله؛ لسهولة القول على ألسنتهم»[٣]. ومن هذا المنطلق فسر الأمر بالسجود بقوله: «وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله، خاضعين لأمره، مستشعرين عظمته وجلاله ونعمه وأفضاله، وهو معنى السجود وروحه المراد هنا»[٤]. وأنكر على من فسر السجود بالانحناء، والتبديل بدخولهم زحفًا على أستاهم، وقولهم: حبة في شعيرة، فقال: «ومنشأ هذه الأقوال الروايات الإسرائيلية، ولليهود في هذا المقام كلام كثير، وتأويلات خدع بها المفسرون، ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى»[٥].

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٩/ ٣٧٣.

(٢) سبق تخريجه، وانظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٣٢٤/١، ٣٢٥ وسبب رفض الإمام لهذه الرواية: أنها جاءت من طريق همام بن منبه أخي وهب، وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات، ولم يصرح أبو هريرة ﷺ بسماع هذا من النبي ﷺ، فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روي عنه. انظر: المصدر السابق ٣٧٣/٩.

(٣) المصدر السابق ٣٢٤/١.

(٤) المصدر السابق ٣٢٤/١.

(٥) المصدر السابق ٣٢٤/١، ٣٢٥.

وكلام رشيد رضا السابق يدل على أنه يوافق أستاذه في رأيه في هذه النقطة رغم أنه صرح في فاتحة تفسيره بأنه قد خالف منهج أستاذه، وتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، فقال: «وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه- رحمه الله تعالى- بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة»[١].

فإن سأل سائل عن منهج الإمام محمد عبده الذي خالفه فيه تلميذه رشيد رضا؛ فالجواب: أنه منهج قائم على المبالغة في تقدير قيمة العقل، والتحيف في حق النصوص، بحيث يؤولها إن صحت عنده، أو يفوض الأمر فيها إلى الله تعالى، وهذا هو سر قوله: «إن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده، أما من قامت له الأدلة على أنه غر صحيح، فا تقوم به عليه حجة، وعلى أي حال فلنا، بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث، ولا نحكمه في عقيدتنا، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل»[٢]، وقد التزم رحمه الله هذا المنهج في تفسيره، ومن شواهد ذلك ما يأتي:

(أ) رغم صحة الروايات الدالة على أن هناك نهرًا في الجنة يقال له الكوثر؛ رأينا الإمام يقرر أن سياق سورة الكوثر وموضع نزولها لا يفهم منهما ما جاء عنه ﷺ، ولكن يفهم منهما ما ذهب إليه من أن الكوثر هو النبوة، أو العلم والحكمة، أو نور القلب، أو الخير الدنيوي والأخروي، والأول وهو النبوة وما في معناها أرجح[٣].

(ب) فسر – رحمه الله – الرعد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [٤] بأنه الصوت المسموع الذي يسمع في السحاب عند اجتماعه أحيانًا، وأنكر على من فسره بالملك، أو بصوته الذي يزجر

---

(١) المصدر السابق ١٦/١.

(٢) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ١٨١.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٥ بتصرف.

(٤) سورة البقرة: ١٩.

به السحاب، فقال: «كأن الملك جسم مادي؛ لأن الصوت المسموع بالآذان من خصائص الأجسام، وكأن السحاب حمار بليد، لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع، وما ذكرناه هو الذي كان يفهمه العرب من اللفظين، وهو الذي يفهمه الناس اليوم، ولا يجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح، ولاسيما إذا صرفت عن معاني من عالم الشهادة الذي يعرفه الواضعون والمتكلمون، إلى معاني من معالم الغيب، لا يعلمها إلا الله تعالى، ومن أعلمهم الله تعالى إياها بالوحي»[١].

قلت: إن الحديث الذي استند إليه بعض المفسرين في تقرير المعنى الذي استنكره الإمام قد رواه الإمام الترمذي، وحكم عليه قائلاً: هذا حديث حسن صحيح غريب، فقد أخرج أن اليهود أقبلت إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟، قال: «ملك من الملائكة، موكّل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟، قال: «زجرة بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر»، قالوا: صدقت[٢].

وبناءً على تلك الرواية قال أكثر المفسرين: الرعد: اسم ملك يسوق السحاب، والبرق: لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب[٣]، لكن الإمام محمد عبده استمرأ استنكار ما تدل عليه النصوص الصحيحة، وجعل العقل ندًا لمصدر هذه النصوص، وهو الوحي، وقد نشأ هذا من استغراقه في مواجهة البيئة الفكرية الجامدة التي عاش فيها، وهي البيئة التي أغلقت باب الاجتهاد، وأنكرت على العقل دوره في فهم شريعة الله تعالى، واستنباط الأحكام منها، كما واجه- رحمه الله- فترة كان العقل فيها بُعبد في أوربا، ويتخذه أهلها إلهًا، وذلك مع هجوم المستشرقين على الإسلام، واتهامهم له بتعطيل العقل البشري والجهد البشري

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١/ ١٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الرعد ٥/٨٢ (٣١٢٨).

(٣) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١/١٧٥.

عن الإيجابية في الحياة، فلما أراد الإمام أن يواجه الجمود العقلي في الشرق، والفتنة بالعقل في الغرب؛ جعل العقل ندًا للوحي في هداية الإنسان، حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل[١] مع أن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية، وإذا كان الأمر هكذا؛ فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه.

ومن المعلوم للمؤمنين أن رسول الله ﷺ أعلم من غيره بذلك، وأنصح الخلق للأمة، وأفصحهم، فقد اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والإرادة، فعُلم قطعًا أن ما بينه، حصل به مراده من البيان، وما أراده من البيان؛ فهو مطابق لعلمه، وعلمه بذلك أكمل[٢].

وهذا لا يعني أن العقل الإنساني منفي ومطرود ومهمل في مجال التلقي من الوحي، وفهم ما يُتلقى، وإدراك ما من شأنه أن يدركه، ولكنه كذلك ليس هو الحكم الأخير، وما دام النص محكمًا؛ فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم، وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح، ويقيم منهجه على أساسه[٣].

وبهذا نتفادى الخطورة الناجمة عن الأخذ بمبدأ تأويل النص ليوافق مفهوم العقل، إذ أي عقل هذا الذي سنؤول النص ليوافق مفهومه؟، عقلي، أم عقلك، أم عقل فلان؟!، إن كل إنسان عاقل يؤمن بأنه لا يوجد عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل، بحيث يمكننا أن نحاكم النص إلى مقرراته، ولو أننا أوجبنا التأويل ليوافق النص مفاهيم هذه العقول الكثيرة؛ فإننا ننتهي إلى فوضى[٤].

---

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته لسيد قطب ص ١٨، ١٩.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥/ ٣٠ - ٣١ بتصرف.

(٣) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته لسيد قطب ص ١٩ بتصرف.

(٤) المصدر السابق ص ١٩ بتصرف.

المبحث الخامس
المقدار الذي فسره الرسول ﷺ من القرآن الكريم

بعد أن اتفقت كلمة العلماء على أن الرسول ﷺ قد فسر القرآن الكريم، وجدناهم يختلفون في المقدار الذي فسره: **فمنهم من قال:** إنه فسر كل ألفاظ القرآن ومعانيه، **ومنهم من قال:** إنه لم يفسر إلا القليل منها، **ومنهم من قال:** إنه فسر الكثير منها، وسأعرض - بتوفيق الله تعالى- في هذه الصفحات كل قول بأدلته، وأبين بالحجة والبرهان حظه من القبول أو الرفض، ثم ألقى الضوء على القول المختار.

القول الأول: إن الرسول ﷺ قد بين كل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه:

نُسب هذا القول إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، حتى إن الدكتور محمد حسين الذهبي جعله على رأس القائلين به[١]، كما صرح الإمام السيوطي بنسبته إليه [٢] بناءً على قوله: «يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [٣] يتناول هذا وهذا»[٤].

واستدل أصحاب هذا القول بما يأتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٥] يدل على قيامه ﷺ بتفسير القرآن كله؛ لأن البيان يتناول معاني القرآن وألفاظه كلها، بحيث يكون شافيًا، وإلا كان ﷺ مقصرًا

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ١/٥٤.
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٢٦٤.
(٣) سورة النحل: ٤٤.
(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٣٣١.
(٥) سورة النحل: ٤٤.

فيما كلف به من الله ﷻ.

ثانيًا: قول عبد الله بن مسعود ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيا؛ لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن»[١]. وقول أبي عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات؛ لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»[٢].

ثالثًا: أن المقصود من كل كلام فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن الكريم أولى بذلك؛ لأن المقصود الأول من تعلم حروفه هو تعلم معانيه، ثم إن العادة تمنع أن يقرأ أي قوم كتابًا في أي علم من العلوم ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله عز وجل الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم[٣].

رابعًا: قول عمر بن الخطاب ﷺ: «إن آخر ما نزلت آية الربا [٤]، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة» [٥] يدل على أنه ﷺ كان يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية؛ لسرعة موته

---

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٣٣١.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٣٣٢.

(٤) جمع الإمام السيوطي بين القول بأن آخر آية نزلت آية الربا، أو آية الدين، أو آية ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ بأن الثلاثة نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وأيده البخاري حين أورد قول ابن عباس رضي الله عنهما: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا» في باب قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فجعل الموضوع بذلك واحدًا، والقولين متحدين غير متعارضين. انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٣٦، وصحيح البخاري ٣/ ١٥٣.

(٥) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب التغليظ في الربا ٢/ ٧٦٤ (٢٢٧٦) وأحمد ١/ ٣٦.

بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه[١].

تفنيد هذا القول:

يمكن تفنيد القول بأن الرسول ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن ومعانيه بما يأتي:

أولاً: جعلُ شيخ الإسلام ابن تيمية على رأس من قالوا بهذا القول وَهْمٌ توهمه من قال به؛ ولو أنه استوعب أقواله كلها؛ لعلم أنه من القائلين بخلاف ذلك، ودليل ذلك ما يأتي:

(أ) لم يصرح شيخ الإسلام بأن رسول الله ﷺ قد فسر جميع أو كل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه في العبارة التي نسب إليه هذا القول بسببها.

(ب) قوله: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان، فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان، فقد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة؛ رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم»[٢]. فهذا النص يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم مصدر لتفسير القرآن، يُرجع إليهم إذا لم يوجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا يمكن بداهة أن يقول صاحب هذا النص – وهو من هو في سعة العلم – إن رسول الله ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، وإلا كان متناقضًا مع نفسه.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٣٦٣-٣٦٤.

(جـ) قوله: «إن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال»[١]، ومن الطبيعي أن التابعين لا يمكن أن يتكلموا في بعض التفسير بالاستنباط والاستدلال إذا كان الرسول ﷺ قد بين لهم كل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه.

(د) قوله: «كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جدا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة؛ فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم» [٢] يدل على أنه ﷺ لم يفسر كل ألفاظ القرآن ومعانيه؛ لأنه لو كان قد فعل لما تنازع الصحابة والتابعون في التفسير.

كل هذا يدل على أن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يقل إن رسول الله ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن ومعانيه، وأن من نسب إليه هذا القول قد وقع في الوهم بسبب عدم استيعابه لسائر أقوال الشيخ في المسألة، وهو الذي قرر أن «من حكى خلافًا في مسألة، ولم يستوعب أقوال الناس فيها؛ فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا، فإن صحح غير الصحيح عامدًا؛ فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً؛ فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى؛ فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور»[٣].

ثانيًا: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٤] غير سديد، إذ ليس فيه ما يدل صراحة

---

(١) المصدر السابق ١٣/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) المصدر السابق ١٣/ ٣٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٣٦٨.

(٤) سورة النحل: ٤٤.

على مدعاهم، بل إن الرسول ﷺ - بمقتضى كونه مأمورًا بالبيان - كان يبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه، ولذلك روى عن مجاهد «أن المراد بهذا التبيين: تفسير المجمل، وشرح ما أشكل، إذ هما المحتاجان للتبيين، وأما النص والظاهر فلا يحتاجان إليه» [(١)]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يدل على أنه تعالى «أراد أن يتفكر عباده في كتابه، فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد»[(٢)]، وقيل: المراد بالتبيين: «إيقافهم على حسب استعداداتهم المتفاوتة على ما خفي عليهم من أسرار القرآن وعلومه التي لا تكاد تحصى، ولا يختص ذلك بتبيين الحرام والحلال وأحوال القرون الخالية والأمم الماضية... وهذا في معنى ما ذكره غير واحد أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود»[(٣)].

ثالثًا: استدلالهم بقول ابن مسعود وأبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنهما لا ينتج المدعى؛ لأن غاية ما يفيده أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهذا الفهم يمكن أن يكون من النبي ﷺ، أو من إخوانهم من الصحابة، أو من النظر والاجتهاد، ولو أنه ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن ومعانيه؛ لنقلوه إلينا، كما نقلوا كل صغيرة وكبيرة من أقواله وأفعاله وتقريراته، ولسجلته موسوعات التفسير والحديث والتاريخ، وكتب علوم القرآن وأسباب النزول، التي يشهد ما فيها بخلاف ذلك.

رابعًا: لا يلزم من الدليل الثالث أن الصحابة قد رجعوا إليه ﷺ في كل ألفاظ القرآن ومعانيه؛ لأنهم فهموا الكثير من آياته تبعًا لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، واستنادًا إلى مواهبهم وملكاتهم التي أوتوها، واجتهادهم الذي اجتهدوه، ولهذا وجدناهم يختلفون في فهم بعض

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٤/ ١٥٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٦.

(٣) روح المعاني للألوسي ١٤/ ١٥٠.

سور القرآن الكريم أو آياته، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟، فقال عمر: إنه من حيث علمتم[١]، فدعا ذات يوم، فأدخله معهم، فما رُؤيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ ؟ ، فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟، فقلت: لا، قال: فما تقول؟، قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[٢]، وذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [٣]، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»[٤] «وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم، ولهذا قال علي رضي الله تعالى عنه: «أو فهما يؤتيه الله رجلاً في القرآن»[٥].

خامسًا: التفسير كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[٦] فكيف يقال – رغم ذلك –: إن رسول الله ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه؟!!.

يقول الإمام الطبري: «مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ مالا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه

---

(١) أشار بذلك إلى قرابته من النبي ﷺ، أو إلى معرفته وفطنته. انظر: فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٠.

(٢) سورة النصر: ١.

(٣) سورة النصر: ٣.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله:﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ ﴾ ٣/ ٣١٧ (٤٩٧٠).

(٥) فتح الباري لابن حجر ٨/٦٠٨، ٦٠٩.

(٦) جامع البيان للطبري ١/ ٢٦.

أمره، واجبه، وندبه، وإرشاده، وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له.... وأن منه مالا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى ابن مريم، وما أشبه ذلك... وأن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك إقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم، كسامع منهم لو سمع تاليًا يتلو: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1]، لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة» [2].

سادسًا: لو كان الرسول ﷺ قد فسر كل ألفاظ ومعاني القرآن ، لما كانت هناك فائدة لتخصيصه ابن عباس رضي الله عنهما بالدعاء له في قوله : «اللهم علمه الكتاب» [3]، وقوله : «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» [4]، لأنه يلزم من بيانه لكل ألفاظ ومعاني القرآن استواء أصحابه رضي الله عنهم في معرفة تأويله.

سابعًا: وفاته ﷺ قبل أن يفسر لأصحابه آية الربا كما يقول عمر ﷺ لا تدل على أنه كان يفسر لأصحابه كل شيء في القرآن إذ يمكن أن نحمل

---

(١) سورة البقرة: ١١ - ١٢ .

(٢) جامع البيان للطبري ١/ ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب قول النبي ﷺ : «اللهم علمه الكتاب» ١/٦٤ (٧٥.)

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١/٢٠٥.

كلام عمر ﷺ على أنه قد أشكل عليه وعلى بعض الصحابة شيء في هذه الآية، فتمنى أن لو كان رسول الله ﷺ قد أزال هذا الإشكال قبل موته.

ويمكن أن يقال: إنه ﷺ قد ترك صحابته على المحجة البيضاء في آية الربا، بدليل تلك الروايات المأثورة عنه ﷺ في تفسير هذه الآية، والتي تضمنتها كتب التفسير بالمأثور، ولكن عمر ﷺلم يبلغه شيء من هذه الروايات، فقال ما قال[1].

وبهذا يتضح أن القول بأن الرسول ﷺ قد فسر كل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه قول مردود، لأن الأدلة التي استند إليها يمكن رد بعضها وتفنيد البعض الآخر.

القول الثاني: إن الرسول ﷺ لم يفسر إلا القليل من ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، وبعبارة أخرى: لم يفسر «إلا آيًا معدودة، قد أجملت فيها أحكام

---

(١) أخرج الطبري عن ابن جريج قال: كانت ثقيف قد صالحت النبي ﷺ على أن مالهم من ربًا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ، فكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتاب، وقال: «إن رضوا، وإلا فآذنهم بحرب». جامع البيان للطبري ٣/٧١، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٣٠، وأسباب النزول للواحدي ص ٧٩. وأخرج مسلم قوله ﷺ في خطبة الوداع : «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا... وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع ربانا، ربا العباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كله». أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ٢/٨٨٦ : ٨٩٢ (١٤٧).

الشريعة، بحيث لا يوقف عليها إلا ببيانه»[١] يقول القاضي شمس الدين الخوَيِّى: «أما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول عليه السلام، وذلك متعذر إلا في آيات قلائل»[٢]، وقال الإمام السيوطي في معرض حديثه عن تفسير الرسول ﷺ : «الذي صح من ذلك قليل جدًا، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة»[٣] واستدلوا بما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت : «ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئًا من القرآن إلا آيًا بعدد علَّمه إياهن جبريل عليه السلام»[٤].

تفنيد هذا القول:

يمكن تفنيد هذا القول من خلال بيان عدم صلاحية الدليل الذي استند إليه القائلون به للاستدلال، فقد قرر الإمام الطبري أنه لا يجوز لأحد ممن علم صحيح سند الآثار وفاسدها في الدين أن يحتج بهذا الحديث، لأن رواية ممن لا يعرف في أهل الآثار، وهو جعفر ابن محمد الزبيدي[٥]، ولهذا قال الإمام ابن كثير: «فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيدي. قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث»[٦].

وأقول: إننا لو افترضنا صحة الحديث، فإننا نحمل كلام السيدة عائشة رضي الله عنها كما قال الإمام ابن عطية: «على مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى»[٧] .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٩١.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٦/١.
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٢٨/٢.
(٤) المصدر السابق ٢٦٤/٢.
(٥) انظر: جامع البيان للطبري ٣٠/١.
(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/١.
(٧) المحرر الوجيز لابن عطية ٤١/١.

فمن المعلوم أنه ﷺ كان يحتاج مع ما أنزل عليه من القرآن إلى تفسير آيات يعلمهن إياه جبريل عليه السلام، وقد نص على ذلك الإمام الطبري في قوله: «من تأويل القرآن ما لا يدرك علمه إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك يفصل مجمل ما في آية من أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه الذي هو مجمل في ظاهر التنزيل، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة... فلا يعلم أحد من خلق الله تأويل ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ ، ولا يعلمه رسول الله ﷺ إلا بتعليم الله إياه، وذلك بوحيه... فذلك هو الآي التي كان رسول الله ﷺ يفسرها لأصحابه بتعليم جبريل عليه السلام إياه»[١].

القول الثالث: إن الرسول ﷺ قد فسر الكثير من ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، وقد صرح به الإمام ابن جزي الكلبي في قوله: «ورد عن النبي ﷺ كثير من تفسير القرآن، فيجب معرفته، لأن قوله عليه السلام مقدم على أقوال الناس»[٢]، وانتصر له الدكتور الذهبي في قوله : «إن الرسول ﷺ بين الكثير من معاني القرآن لأصحابه»[٣].

تفنيد هذا القول:

وصف الكثرة الذي أطلقه أصحاب هذا القول على تفسير الرسول ﷺ وصف نسبي لا ينضبط، فما يكون كثيرًا من وجه، يعد قليلاً من وجه آخر، والكثير عند طائفة من الناس، يمكن أن يكون قليلاً عند طائفة أخرى، فإذا اعتبرنا أنه ﷺ قد فسر الكثير من معاني القرآن وألفاظه، فإننا نتساءل: هل وصف الكثرة هنا ينصرف إلى المفسَّر من القرآن الكريم، أم إلى ما نقل من التفسير عنه ﷺ ، أم إلى ما ثبتت صحته وقرر العلماء قبوله من هذا المنقول؟

---

(١) جامع البيان للطبري ١/٣٠.

(٢)التسهيل لابن جزى الكلبي ١/٧.

(٣)التفسير والمفسرون للذهبي ١/٥٨.

والجواب: أنه لا يمكن أن ينصرف إلى أيٍّ من هذه الثلاثة لما يأتي:

أولاً: انصراف وصف الكثرة إلى المفسَّر من القرآن الكريم غير ممكن، لأن منه ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما لا يعذر أحد بجهالته، ومنه ما تعرفه العرب من كلامها، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

كما أن إسهامه ﷺ في تفسير الآيات الكونية- قرابة الألف آية- محدود للغاية، بحيث يتناسب مع المستوى العقلي للبشرية في زمنه، وقد استفاد في ذلك من القرآن الكريم ذاته، حيث كان يعدل- في هذا الجانب- عن الجواب المباشر للسؤال، لأنه لا يتناسب مع المستوى العقلي للمخاطبين، ويجيبهم بما يستوعبونه، بحيث يحمل هذا الجواب عطاءات أخرى تتناسب مع النمو العقلي للبشرية، فعندما سئل ﷺ : ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقًا مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد، نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (١) (٢).

وقد اشتهر هذا السبب رغم ضعفه(٣)، لأن علماء البلاغة يذكرونه في مطابقة الجواب للسؤال وعدمها، حيث قالوا: إن مراد السائلين بيان السبب الطبيعي لهذا الاختلاف، والجواب إنما جاء ببيان الحكمة دون بيان العلة(٤)، **وسبب ذلك:** أن بيان العلة كان يستدعي إجابة علمية «ربما كانت تمنح السائلين علمًا نظريًا في الفلك إذا هم استطاعوا بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين أن يستوعبوا هذا العلم، ولقد كان ذلك مشكوكًا فيه، لأن

---

(١) سورة البقرة : ١٨٩.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٢/ ٧١.

(٣) نص الألوسي على ذلك، ولعل هذا هو سبب عدم إيراد ابن جرير وابن كثير له في تفسيريهما.

(٤) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٢/٢٠٢.

العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات. من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية»[١].

ومع ذلك وعدت البشرية بأن ترى آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لها أنه الحق، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٢]، وسبب هذا التأجيل واضح أيما وضوح في قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[٣]، ولعله نفس السبب الذي حال بين رسول ﷺ وبين اقتحام مجال تفسير الآيات الكونية، حرصًا منه على مخاطبة الناس على قدر عقولهم[٤].

فإن كان ولا بد فإن تفسيره ﷺ لآية من هذه الآيات الكونية يكون مجملاً، ومثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن أبي ذر ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[٥]»[٦].

وهذا التفسير مقبول على ظاهره، لأن كل شيء في الوجود لا يخرج عن

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ١٨١.

(٢) سورة فصلت: ٥٣.

(٣) سورة يونس: ٣٩.

(٤) روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وروي البخاري في صحيحه تعليقًا عن علي ﷺ قال: «حدثوا القوم بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!».

(٥) سورة يس: ٣٨.

(٦) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة يس ٣/ ٢٥٧ (٤٨٠٢).

تحت العرش، لقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (١)، وإن كانت رواية الإمام مسلم قد أفادت أن مستقر الشمس الذي تجري له هو انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا حين تطلع من مغربها (٢)، فقد أخرج عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال يومًا: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها»، فقال رسول الله ﷺ : «أتدرون من ذاكم؟، ذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»(٣).

يتضح من ذلك كله أن وصف الكثرة لا يمكن أن ينصرف إلى المفسَّر من آيات القرآن الكريم، لأن منها ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنها ما يعذر أحد بجهالته، ومنها ما تعرفه العرب من كلامها، كما أن إسهامه ﷺ في تفسير الآيات الكونية محدود للغاية.

ثانيًا: لا يصح أن ينصرف الوصف بالكثرة إلى ما نقل عنه ﷺ، لأن الموضوعات فيه كثيرة، وقد صرح شيخ الإسلام ابن تيمية بذلك في قوله : «الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين، والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا، فإما زيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود»(٤) وقال في موضع آخر: «وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة،

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٣٤٦/٢، ٣٤٧.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ١٣٨/١ (٢٥٠).

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٢٩/١٣، ٣٣٠.

مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي، والواحدي، والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم»[١]، كما صرح به العلامة ابن خلدون في قوله: «التفسير على صنفين: تفسير نقلي مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومقاصد الآي، وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين، وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود»[٢].

يتضح من ذلك أيضًا أن وصف الكثرة لا يمكن أن ينصرف إلى ما نقل عنه ﷺ، لأن العبرة ليست بالمنقول عمومًا، ولكن بما صح وثبت منه، والثابت الصحيح منه قليل جدًا، ولهذا قال السيوطي في معرض حديثه عن تفسير النبي ﷺ: «الذي صح من ذلك قليل جدًا، بل أصل المرفوع منه في غاية القلقة»[٣].

تنبيه:

للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عبارة يوهم ظاهرها أنه ينفي الصحة عن كل الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ في التفسير، ونص هذه العبارة كما أوردها الإمام السيوطي في الإتقان: «ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير»[٤]. فإذا اطلعنا على ما قاله المحققون من أصحاب الإمام أحمد في مراده من هذه العبارة، ارتفع هذا الوهم، ولم يبق له أي أثر، فقد قالوا: «مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة»[٥].

ونص عبارته كما أورده شيخ الإسلام ابن تيمية يؤكد هذا المراد، فقد جاء هكذا: «ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ١٣/٣٥٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٨.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٢٢٨.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٥) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

والمغازي، ويروي : ليس لها أصل، أي إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل»[١].

ولهذا فهم البعض من قول الإمام: «ثلاثة كتب» أنه لم يقصد إلا كتبًا خاصة بهذه العلوم الثلاثة، كان رحمه الله تعالى يرى عدم صحة ما اشتملت عليه[٢]، إذ لا يعقل أن يريد الإمام من عبارته نفى الصحة عن كل الأحاديث المرفوعة إلى الرسول ﷺ في التفسير وهو الذي روى أحاديث كثيرة صحت عنه ﷺ في هذا الشأن، ومن ذلك ما رواه عن سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»[٣].

ومنه ما رواه عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٤]، فكل سوء عملنا جزينا به؟، فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟»، قال: بلى، قال: «فهو ما تجزون به»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/٣٤٦.

(٢) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي ص ٢٤٥.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٢، وأخرج مسلم مثله عن علي بن أبي طالب، وابن مسعود رضي الله عنهما في كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ١/ ٤٣٦: ٤٣٨، وأخرج الترمذي مثله – أيضًا– في تفسير سورة البقرة ، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) سورة النساء : ١٢٣.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/١١، وفي إسناده انقطاع بين التابعي أبي بكر بن أبي زهير الثقفي وبين أبي بكر الصديق، ولذلك ضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل كما قال الترمذي. انظر: سنن الترمذي ٥/ ٣٢. لكن الحديث له شواهد تدل على صحته ، فقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ بلغت من المسلمين مبلغًا عظيمًا؛ فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة يُنكبها، أو الشوكة يشاكها». أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ٤/ ١٩٩٣ (٢٥٧٤).

القول الراجح:

القول الذي أرجحه في المقدار الذي فسره الرسول ﷺ من القرآن الكريم هم أن تفسيره ﷺ كان على قدر الحاجة في الزمن الذي تَنَزَّل عليه الوحي فيه، ولأولئك القوم الذين عاصروه، **وأسباب هذا الترجيح ما يأتي:**

أولاً: أن الذين عاصروا الرسول ﷺ شاهدوا نزول القرآن الكريم نجمًا نجمًا، وعاينوا الحوادث التي تنزل فيها، وعرفوا المتقدم فيه والمتأخر، فلم يحتاجوا في بيانه إلى ما يمكن أن يحتاج إليه من بعدهم ممن لم يشاهدوا تلك الأحوال، لاسيما وهم أرباب اللغة التي تَنَزَّل بها، قد نشأوا عليها حتى كانت لهم طبعًا وسجية، فما الذي كان يُحْوجهم إلى تفسير الآيات التي هم بحقيقتها عارفون[1]، وقد كانوا يسألونه ﷺ إذا أشكل عليهم شيء في القرآن الكريم فيوضح لهم ويفسر تفسيرًا على قدر الحاجة كما سبق.

ثانيًا: أن الأقوال السابقة في المقدار الذي فسره الرسول ﷺ من القرآن الكريم قد تم تفنيدها، وردّ بعض أدلتها، وتوجيه البعض الآخر بما لا يدع مجالاً لأحد في القول بها، أو تبنيها والدفاع عنها.

ثالثًا: أن وصف تفسيره ﷺ بالقلة أو الكثرة وصف نسبي لا يمكن أن ينضبط، بل إن الوصف الأول يمكن أن يوهم أنه لم يقم بمهمة البيان التي كلفه الله عز وجل بها على الوجه الأكمل، والوصف الثاني يمكن أن يوهم أنه ﷺ قد بسط الكلام فيما لا يحتاج إلى بسط، وتعرض لتفسير ما كان في غنى عن تفسيره ﷺ، وعلم التفسير كما يقول الإمام الشاطبي: «مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلومًا؛ فالزيادة على ذلك تكلف. ويتبين ذلك في مسألة عمر: وذلك أنه لما قرأ: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[2] توقف في

---

(١) انظر: مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٦، ١٩١.

(٢) سورة عبس: ٣١.

معنى الأب، وهو معنى إفرادي لا يقدح عدم العلم به في علم المعنى التركيبي في الآية، إذ هو مفهوم من حيث أخبر الله تعالى في شأن طعام الإنسان مباشرة، كالحب والعنب، والزيتون والنخل، ومما هو من طعامه بواسطة مما هو مرعى للأنعام على الجملة، فبقي التفصيل في كل فرد من تلك الأفراد فصلاً، فلا على الإنسان أن لا يعرفه، فمن هذا الوجه والله أعلم عد البحث عن معنى الأب من التكلف، وإلا فلو توقف عليه فهم المعنى التركيبي من جهة؛ لما كان من التكلف، بل من المطلوب علمه؛ لقوله: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [1]. ولذلك سأل الناس على المنبر عن معنى التخوف في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ ﴾ [2]؛ فأجابه الرجل الهذلي بأن التخوف في لغتهم: التنقص»[3].

من هنا قال الإمام محمد عبده في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾: «فالمطلوب منك في هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسداها إليك في نفسك، وتقويم حياتك، وجعلها متاعًا لك ولأنعامك، فإذا جاء في سردها لفظ لم تفهمه؛ لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره، بل الواجب على أهل الجد والعزيمة أن يعتبروا بتعداد النعم، وأن يجعلوا معظم همهم: الشكر والعمل، وهكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنهم، ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الألفاظ، وجعلوها شغلاً شاغلاً، لا يهمهم إلا التشدق بتصريفها وتأويلها وتحميلها ما لا تحتمله، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر، وأعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر»[4].

---

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) سورة النحل: ٤٧.

(٣) الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي ١/ ٢٥.

(٤) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ٢١.

المبحث السادس
أثر التفسير النبوي على النص القرآني

الروايات المأثورة عن الرسول ﷺ في تفسير بعض النصوص القرآنية تدل على أن الوحي الإلهي هو مصدر هذا التفسير، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (١)، وقوله أيضًا: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

ولهذا قال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»(٣)، أي أنه أوتي الكتاب وحيًا يتلى، وأوتي من البيان مثله، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرح ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به، ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن(٤). يقول الإمام الشافعي: «وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان: جملة بين رسول الله ﷺ فيها عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها، عامًا أو خاصًا، وكيف أراد أن يأتي به العباد، وكلاهما اتبع فيه كتاب الله»(٥)، فقد أمره الله ﷻ باتباع وحيه فقال: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾(٦)، ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٧). كما أمره أن يعلن أن حاله

---

(١) سورة النجم: ٣: ٥، وقد ذكر ابن حجر هذا النص القرآني عقب ذكره لقول حسان بن عطية، أحد التابعين ومن ثقات الشاميين: «كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن». انظر: فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٣٠٥.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٨٥.

(٥) الرسالة للشافعي ص ٩١.

(٦) سورة يونس: ١٠٩.

(٧) سورة الزخرف: ٤٣.

مقتصر على اتباع ما يوحى إليه في قوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)، وقوله:﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) « أي ما أتبع فيما آتي وأذر إلا ما يوحى إليّ، من غير تغيير له في شيء أصلاً، على معنى قصر حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع ما يوحى... فكأنه قيل: ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إليّ، والجملة مستأنفة بيانًا لما يكون، فإن من شأنه اتباع الوحي على ما هو عليه، لا يستقل بشيء دونه أصلاً »(٣).

ولهذا عقد الإمام البخاري في صحيحه بابًا عنوانه: « ما كان النبي ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحي فيه؛ فيقول: لا أدري، أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي، ولم يقل برأي ولا قياس »(٤)، واستدل رحمه الله على ذلك بقول عبد الله بن مسعود ﷺ: « سئل عن الروح؛ فسكت حتى نزلت الآية»(٥).

من هنا: كان تفسيره ﷺ بيانًا لمجمل القرآن، أو توضيحًا لمشكلة، أو تخصيصًا لعامه، أو تقييدًا لمطلقه، أو توضيحًا لمبهمه، أو بيانًا للنسخ فيه، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أولاً: تبيين المجمل:

يقصد بالمجمل: « ما خفي المراد منه بنفس اللفظ خفاء لا يدرك إلا ببيان المتكلم، وتبيين من جهته يعرف به المراد »(٦).

---

(١) سورة يونس: ١٥.
(٢) سورة الأحقاف: ٩.
(٣) روح المعاني للألوسي ١١/ ٨٤.
(٤) صحيح البخاري ٤/ ٣٩٧.
(٥) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(٦) دلالة الألفاظ عند الأصوليين لمحمود توفيق ص ٣٨٨.

فقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[١] نص مجمل لم يبين الله ﷻ فيه كيفية الصلاة، ولا مواقيتها، ولا أنواعها، ولا عدد ركعاتها إلا من خلال فعل رسوله ﷺ الذي صلى، ثم قال لأمته: « صلوا كما رأيتموني أصلي »[٢]، ولذلك قال عمران بن حصين ﷺ لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعًا لا تجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسرًا؟!، إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[٤] نص مجمل بينه الرسول ﷺ بقوله وفعله، ثم قال لأمته: « لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه »[٥] وفي رواية: « خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم حتى بلغ الجمار »[٦].

ومن النصوص القرآنية المجملة التي بينها الرسول ﷺ: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾[٧]، فقد

---

(١) سورة البقرة: ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين ١/ ١٩٢ (٦٣١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٨٦.

(٤) سورة البقرة: ١٩٦.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب بيان قوله ﷺ: « لتأخذوا مناسككم » ٢/ ٩٤٣ (٣١٠) وأبو داود في كتاب المناسك، باب في رمي الجمار ٢/ ٢٠٧ (١٩٧٠)وأحمد في المسند ٣/ ٣٧٨.

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب ما يذكر الإمام في خطبته بمنى ٢/ ٢٠٥ (١٩٥٧).

(٧) سورة النساء: ١٢.

أخرج الإمام مسلم أن عمر بن الخطاب ﷺ عنه خطب يوم جمعة فذكر نبي الله ﷺ، وذكر أبا بكر، ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئًا أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله ﷺ ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال: « يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟! »[1] يقصد ﷺ قول الله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[2]. وهكذا فسر ﷺ آية الكلالة في أول سورة النساء بالآية الأخيرة منها، والتي توضح أن الكلالة هو من مات ولم يدع ولدًا ولا والدًا[3].

ومن النصوص القرآنية المجملة التي بينها الرسول ﷺ: قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[4]، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة ٣/ ١٢٣٦ (٩).

(٢) سورة النساء: ١٧٦، وقد اختلف العلماء في اشتقاق الكلالة « فقال الأكثرون: مشتقة من التكلل وهو التطرف، فابن العم مثلاً يقال له كلالة؛ لأنه ليس على عمود النسب بل على طرفه، وقيل: من الإحاطة، ومنه الإكليل، وهو شبه عصابة تزين بالجوهر؛ فسموا كلالة لإحاطتهم بالميت من جوانبه، وقيل: مشتقة من كلّ الشيء إذا بعد وانقطع، ومنه قولهم: كلّت الرحم؛ إذا بعدت وطال انتسابها ». انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١١/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٣) انظر: ما أخرجه أبو داود في الفرائض، باب من كان ليس له ولد وله أخوات ٣/ ١٢٠ (٢٨٨٩).

(٤) سورة الأنعام: ١٢٥.

صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾، قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟، قال: «نور في القلب»، قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة تعرف؟، قال: « نعم »، قالوا: وما هي؟، قال: « الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت »[١].

ومن النصوص القرآنية المجملة التي بينها الرسول ﷺ: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[٢]، فالأشهر الحرم مجملة في هذا النص القرآني، لكن الرسول ﷺ بينها في قوله: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »[٣].

ومن النصوص القرآنية المجملة التي بينها الرسول ﷺ: قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٤]، فقد أخرج البخاري عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٥].

---

(١) أخرج ابن كثير عدة طرق لهذا الحديث وقال: « فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا ». انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٧٤، ١٧٥.

(٢) سورة التوبة: ٣٦.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ ٣/ ٢٠٩ (٤٦٩٩) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/ ٢٢٠١ (٧٣).

ثانيًا: توضيح المشكل:

يُقصد بالمشكل: ما استتر معناه بسبب دخوله في أشكاله، فلا يدرك إلا بطلب وتأمل، فهو مأخوذ من قول القائل: أشكل عليَّ كذا، أي دخل في أشكاله وأمثاله[١].

وقد قام الرسول ﷺ بتوضيح نصوص قرآنية متعددة أشكلت على أصحابه رضي الله عنهم.

فعندما أشكل على عدي بن حاتم قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [٢] وسأل الرسول ﷺ: ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟؛ وضح ﷺ له المقصود بقوله: « إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين »، ثم قال: « لا، بل هما سواد الليل وبياض النهار »[٣].

ولما قدم المغيرة بن شعبةﷺ على أهل نجران سألوه فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾[٤]، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟، فلم يدر ما يجيبهم، فرجع إلى النبي ﷺ فسأله عن ذلك، فقال: « إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[٥].

وعندما سمعت حفصة رضي الله عنها رسول الله ﷺ يقول: « لا يدخل النار – إن شاء الله – من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها »؛ قالت: بلي يا رسول الله!، فانتهرها، فقالت: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [٦]، فقال

---

(١) انظر: دلالة الألفاظ عند الأصوليين لمحمود توفيق ص ٣٨٤.

(٢) سورة البقرة: ١٨٧.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) سورة مريم: ٢٨.

(٥) أخرجه مسلم في الآداب، باب النهي التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ٣/ ١٦٨٥.

(٦) سورة مريم: ٧١.

النبي ﷺ: « قد قال الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [١]»[٢].

وقد قيل: إن الورود هنا معناه: الدخول، بدليل قوله ﷺ: « الورود: الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار -- أو قال لجهنم - ضجيجًا من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيا »[٣]. « والصحيح أن المراد بالورود في الآية: المرور على الصراط، وهو جسر منصوب على جهنم، فيقع فيها أهلها، وينجو الآخرون »[٤]. ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كَحُضْرِ الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشدِّ الرجل، ثم كمشيه»[٥].

ومن النصوص القرآنية التي أشكلت على أبي بكر ﷺ: قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٦]، فقد سأل الرسول ﷺ: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية، فكل سوء عملنا؛ جزينا به؟، فقال ﷺ: « غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟ »، قال: بلى، قال: « فهو ما تجزون به »[٧].

---

(١) سورة مريم: ٧٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة ٤/ ١٩٤٢ (١٦٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩، وقال ابن كثير بعد أن أورده في تفسيره: « غريب ولم يخرجوه ». انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١٣٢.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ٤٧.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة مريم ١٠٨/٥ (٣١٧٠) وقال: هذا حديث حسن، والحُضْر: ارتفاع الفرس في عدوه.

(٦) سورة النساء: ١٢٣.

(٧) الحديث سبق تخريجه.

ومما أشكل على الصحابة رضي الله عنهم: قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1]، فعندما نزلت؛ شق ذلك عليهم، وقالوا: يا رسول الله، أينا لم يلبس لإيمانه بظلم؟ فقال ﷺ: « إنه ليس بذاك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[2] »[3].

ولما أشكل عليها قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾[4]؛ سألت: فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فأوضح لها الجواب قائلاً: « على الصراط »[5]، وقد ازداد هذا الإيضاح بقوله ﷺ: « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النَقِيّ، ليس فيها علم لأحد »[6] والعفراء بالعين المهملة والمدّ: بيضاء إلى حمرة، والنقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء هو الدقيق الحوريّ، وهو الدرمك، أي الأبيض، وهو الأرض الجيدة، وكأن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى الحمرة، ومعنى « ليس فيها علامة لأحد»: ليس فيها علامة سكنى أو بناء ولا أثر[7]. وعندما قيل لأبي ثعلبة الخشني ﷺ يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا

---

(١) سورة الأنعام: ٨٢.

(٢) سورة لقمان: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة ٤/ ٢٩٦ (٦٩١٨) ومسلم في الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه ١/ ١١٤، ١١٥ (١٩٧).

(٤) سورة إبراهيم: ٤.

(٥) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور ٤/ ٢١٥٠ (٢٩).

(٦) أخرجه مسلم في صفات المنافقين ، باب في البعث والنشور ٤/ ٢١٥٠ (٢٨).

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٢٧٦.

آهْتَدَيْتُمْ ﴾ [١]؟؛ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: « بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك – يعني بنفسك – ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»[٢].

الفرق بين المجمل والمشكل:

من خلال ما سبق يمكن أن نميز المشكل من المجمل تمييزًا لا يدع أي مجال للخلط بينهما، **فالمجمل** تتزاحم وتتوارد المعاني عليه بلا رجحان في العبارة، فيشتبه اشتباهًا لا يدرك بنفس العبارة ولا عن طريق التأمل البليغ، ولكنه يدرك فقط ببيان الله ﷻ عن طريق الوحي إلى رسوله ﷺ، وبعد البيان يكون هناك مجال للتأمل والتفكر[٣]، **أما المشكل** فيمكن إدراكه بالتأمل أو الطلب من رسول الله ﷺ، أو ممن هم من أهل العلم والقرآن الكريم.

ولهذا نلاحظ في الأمثلة التي أوردناها أن الإشكال فيها لم يحدث لجميع الصحابة رضوان الله عليهم، وإنما حدث لفرد أو أفراد معدودين، سألوا رسول الله ﷺ؛ فأزال هذا الإشكال، بل إن بعض الروايات الصحيحة تشهد بأن بعض الصحابة كانوا يتصدون لإزالة بعض الإشكالات التي تطرأ في العقول عند قراءة آية ما في القرآن الكريم، فعن عروة بن الزبير ﷺ قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا

---

(١) سورة المائدة: ١٠٥.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٤/ ١٢١ (٤٣٤١) والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المائدة ٥/ ٤١، ٤٢ (٣٠٦٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) انظر: أصول الفقه، محمد أبو زهرة ص ١٢٢.

جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [١]، فما أرى على أحد شيئًا أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: « كلا، لو كانت كما تقول؛ كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد[٢]، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام؛ سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ »[٣].

ثالثًا: تخصيص العام:

العام: « لفظ وضع وضعًا واحدًا لكثير غير محصور مستغرق جميع ما يصلح له»[٤]، فهو مأخوذ من عَمَّ الشيء عمومًا إذا شمله[٥]، والمقصود بتخصيصه: قصره على بعض مسمياته، أو بعض أفراده، وهذا لا يعني إخراج بعض أفراده من الحكم بعد أن دخلوا فيه، وإنما يعني بيان إرادة الشارع بعض أفراد العام ابتداءً، وأن الأفراد التي لا تشملها الأحكام المقترنة بلفظ العام لم تدخل ضمن العام بالنسبة لهذه الأحكام، فقد نصت كتب الأصول على أن التخصيص هو قصر العام على بعض أفراده بالإرادة الأولى، فيكون المخصص مبينًا لإرادة الخصوص[٦].

ومعيار دلالة أي صيغة على العموم هو صحة الاستثناء منها؛ لأن

---

(١) سورة البقرة: ١٥٨.

(٢) قديد: قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثيرة المياه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة البقرة ٣/ ١٤١ (٤٤٩٥).

(٤) دلالة الألفاظ عند الأصوليين لمحمود توفيق ص ١٢٢.

(٥) انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي، باب الميم، فصل العين.

(٦) انظر: أصول الفقه، محمد أبو زهرة ص ١٥٣.

الاستثناء: إخراج ما لولاه لوجب دخوله في المستثنى منه، فوجب أن تكون كل الأفراد واجبة الاندراج، وهذا هو معنى العموم[١].

ومن النصوص القرآنية العامة التي خصصها الرسول ﷺ: قول الله عز وجل:﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾[٢]، فهذا نص عام في كل والد مورث، وكل ولد وارث، لكنه ﷺ خصص هذا العموم من الناحيتين:

الناحية الأولى: المورث، حيث خُص بغير الأنبياء، وذلك في قوله ﷺ: « لا نورث، ما تركنا صدقة »[٣]، « والحكمة في أن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يورثون: أنه لا يؤمن أن يكون في الورثة من يتمنى موته فيهلك، ولئلا يظن بهم الرغبة في الدنيا لوراثهم فيهلك الظان، وينفر الناس عنهم »[٤].

الناحية الثانية: الوارث، حيث خُص بغير القاتل، وبغير الكافر، وذلك في قوله ﷺ: « القاتل لا يرث »[٥]، وقوله: « ليس لقاتل شيء »[٦]، وقوله: « لا يتوارث أهل ملتين»[٧]، وقوله: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم »[٨].

---

(١) انظر: دلالة الألفاظ عند الأصوليين لمحمود توفيق ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) سورة النساء: ١١.

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب فرض الخمس ٢/ ٢٨٢ (٣٠٩٣) ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: « لا نورث، ما تركنا، فهو صدقة » ٣/ ١٣٨٠، ١٣٨١ (٥٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٤٢٧.

(٥) أخرجه الترمذي في الفرائض، باب ما جاء في إبطال ميراث القاتل ٤/ ٣٦ (٢١١٦) وقال: هذا حديث لا يصح، لا يعرف إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قد تركه بعض أهل العلم، منهم أحمد بن حنبل، والعمل على هذا عند أهل العلم، أن القاتل لا يرث، كان القتل خطأ أم عمدًا، وقال بعضهم: إذا كان القتل خطأ؛ فإنه يرث، وهو قول مالك.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٩.

(٧) أخرجه الترمذي في الفرائض، باب لا يتوارث أهل ملتين ٤/ ٣٦ (٣١١٥) وقال: هذا حديث لا نعرفه من حديث جابر، إلا من حديث أبي ليلى.

(٨) أخرجه الترمذي في الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم ٤/ ٢٥٧ (٦٧٦٤) ومسلم في كتاب الفرائض ٣/ ١٢٣٣ (١).

أما قول الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [١]؛ فقد خصصه الرسول ﷺ لما سأله رجل قائلاً: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟، فقال ﷺ: « هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»[٢]، وخصصه أيضًا بقوله: « أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان؛ فالحوت والجراد، وأما الدمان؛ فالكبد والطحال »[٣].

ولما بين الله تعالى من يحرم التزوج بهن في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[٤]، ثم أباح التزوج بمن عداهن في نص عام هو وقله تعالى:﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾[٥]. جاء الرسول ﷺ فخصص هذا العموم من ناحيتين: **الأولى:** في قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[٦]،

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) أخرجه الترمذي في الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور ١/ ١٣٠ (٦٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجة في الأطعمة، باب الكبد والطحال ٢/ ١١٠٢ (٣٣١٤) وأحمد ٢/ ٩٧.

(٤) سورة النساء: ٢٣، ٢٤.

(٥) سورة النساء: ٢٤.

(٦) أخرجه البخاري في الشهادات، باب الشهادة، على الأنساب والرضاع ٢/ ١٥٩ (٢٦٤٥).

وقوله: « الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة »[١]. والثانية: في قوله ﷺ: « لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها »[٢].

وكذلك خصص الرسول ﷺ قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [٣] حين بين أن عدة الأمة إذا طلقت أقل من عدة الحرة، وذلك في قوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وقرؤها حيضتان »[٤]، وهذا الحديث مخصص أيضًا لعموم ما ثبت بقوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [٥]، فهذا نص إلهي عام يدل على أن الطلاق ثلاث مرات، بدليل أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ذكر الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟، قال: « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »[٦]، لكن الرسول ﷺ خصص هذا العموم بقوله الذي سبق: «طلاق الأمة تطليقتان».

رابعًا: تقييد المطلق:

عرف الإمام السيوطي المطلق بأنه: « الدال على الماهية بلا قيد »[٧]. وعرفه غيره بعبارة أوضح فقال: « هو الذي يدل على موضوعه من غير نظر إلى الوحدة أو الجمع أو الوصف، بل يدل على الماهية من حيث

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ٣/ ٣٤٨، ٣٤٩ (٥٠٩٩) ومسلم في الرضاع، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ٢/ ١٠٦٨ (١).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها ٣/ ٣٥٢ (٥١٠٩).

(٣) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٤) أخرجه أبو داود في الطلاق، باب في سنة طلاق العبد ٢/ ٢٦٤ (٢١٨٩) وقال: حديث مجهول، وأخرجه الترمذي في الطلاق واللعان، باب ما جاء في أن طلاق الأمة تطليقتان ٢/ ٣٩٩ (١١٨٥) وضعفه.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٧٢.

(٧) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٤٠.

هي... فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ (١) يدل على المطالبة بعتق رقبة، من غير ملاحظة أن تكون واحدة أو أكثر، ومت غير ملاحظة أن تكون مؤمنة أو غير مؤمنة، بل المطلوب عتق ما يسمى رقبة »(٢).

وأما المقيد فهو « ما يدل على الماهية مقيدة بوصف أو حال، أو غاية، أو شرط، أو بعبارة عامة مقيدة بأي قيد من القيود... كقوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾(٣)، وهذا مثال المقيد بوصف، ومثال المقيد بشرط: قوله تعالى في كفارة اليمين:﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ (٤)، فصيام ثلاثة أيام مقيد بألا يجد رقبة ولا طعامًا ولا كسوة، ومثال التقييد بالغاية قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾(٥)، فالصوم مقيد بغاية وهي الليل، فلا يجوز صوم الوصال »(٦).

والمتتبع للروايات المأثورة عنه ﷺ في التفسير يجد أن بعض هذه الروايات قد قيدت نصوصًا قرآنية مطلقة، فمثلاً: قول الله عز وجل: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾(٧)، وقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾(٨)، وقوله: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ (٩)، كل هذا يفيد أن الوصية

---

(١) سورة المجادلة: ٣.
(٢) أصول الفقه، محمد أبو زهرة ص ١٥٧، ١٥٨.
(٣) سورة النساء: ٩٢.
(٤) سورة المائدة: ٨٩.
(٥) سورة البقرة: ١٨٧.
(٦) أصول الفقه، محمد أبو زهرة ص ١٥٨.
(٧) سورة النساء: ١١.
(٨) سورة النساء: ١٢.
(٩) سورة النساء: ١٢.

جائزة مطلقًا، لكن الرسول ﷺ قيد هذا الإطلاق من ناحيتين:

الناحية الأولى: أن تكون في حدود الثلث، لما رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة...، قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: « لا »، قلت: فالشطر؟، قال: « لا »، قلت: الثلث؟، قال: « فالثلث »، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك[1].

الناحية الثانية: أن تكون الوصية لغير وارث، لقوله ﷺ: « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث »[2].

ومن النصوص القرآنية المطلقة التي قيدها رسول الله ﷺ: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[4].

فهذان النصان القرآنيان يوجبان الطواف مطلقًا، لكن الرسول ﷺ قيد هذا الإطلاق بالضوء، وهذا التقييد ثابت بعمله ﷺ، وبقوله، **أما عمله:** فيدل عليه ما أخرجه البخاري في كتاب الحج عن عائشة رضي الله عنها قالت: « أول شيء بدأ به - يعني الرسول ﷺ - حين قدم أنه توضأ ثم طاف بالبيت »[5].

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء ٢/ ١٩٥ (٢٧٤٢) ومسلم في الوصية، باب الوصية بالثلث ٣/ ١٢٥٠ : ١٢٥٣ (٥، ٦، ٧، ٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث ٣/ ١١٣ (٢٨٧٠) والترمذي في الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث ٤/ ٤٢ : ٤٤ عن أبي أمامة الباهلي، وقال: هذا حديث حسن، وعن عمرو بن خارجة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سورة البقرة: ١٥٨.

(٤) سورة الحج: ٢٩.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الطواف على وضوء ١/ ٤٣٠، ٤٣١ (١٦٤١).

وأما قوله: فيتمثل فيما أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: الطواف حول البيت مثل الصلاة، إلا أنكم تتكلمون فيه، فمن تكلم فيه؛ فلا يتكلم إلا بخير[١].

الفرق بين المطلق والعام[٢]:

يمكن تمييز المطلق من العام من حيث طبيعة التناول في كلٍّ، فالعام يحكم فيه على كل فرد من أفراد مسماه، فالحكم بالفلاح في قوه تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] يشمل كل فرد من أفراد المؤمنين، بحيث لا يبقى واحد منهم لا يتناوله الحكم، أما المطلق فإنه لا يحكم فيه على كل فرد من أفراد مسماه، بل على فرد شائع يتناوله الحكم على سبيل البدل لا الجمع، فالحكم في قول الله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ [٤] يتناول زوجًا واحدًا، لا كل فرد من الأزواج، فإذا تحقق نكاح أي زوج تحقق الحكم.

خامسًا: توضيح المبهم:

علم مبهمات القرآن مرجعه النقل المحض، ولا مجال للرأي فيه[٥] وقد كان سلفنا الصالحون يهتمون بمعرفة هذه المبهمات، حتى قال قائلهم:

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج، باب ما جاء في الكلام في الطواف ٢/ ٢٨٦ (٩٦٢) وقال: وقد روى عن ابن عباس موقوفًا، ولا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث عطاء بن السائب، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، يستحبون أن لا يتكلم الرجل في الطواف إلا لحاجة، أو ذكر لله، أو العلم.

(٢) انظر: دلالة الألفاظ عند الأصوليين لمحمود توفيق ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: ١.

(٤) سورة البقرة: ٢٣٠.

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٥٨.

«طلبت الذي خرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة»[١].

ويرى الإمام الزركشي أنه لا يبحث عن مبهم أخبر الله تعالى باستئثاره بعلمه، كقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[٢]، وتعجب ممن تجرأ وقال: إنهم قريظة، أو من الجن[٣].

وخالفه السيوطي فقال: « ليس في الآية ما يدل على أن جنسهم لا يعلم، وإنما المنفي علم أعيانهم، ولا ينافيه العلم بكونهم من قريظة أو من الجن، وهو نظير قوله في المنافقين: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾[٤]، فإن المنفي علم أعيانهم، ثم القول في أولئك أنهم قريظة أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد، والقول بأنهم من الجن أخرجه ابن أبي حاتم أيضًا في حديث للرسول ﷺ، فلا جراءة »[٥].

وقد سبق الإمامُ الطبري الإمامَ السيوطي في ترجيح أن المنفي علم أعيانهم، حيث قال: « قول من قال: عني به الجن أقرب وأشبه بالصواب؛ لأنه – جل ثناؤه – قد أدخل بقوله: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٥٥، وقائل هذه العبارة هو عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، والذي خرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت هو ضمرة بن العيص، وكان من المستضعفين بمكة، وكان مريضًا، فلما نزلت آية الهجرة؛ خرج منها، فمات بالتنعيم – موضع بمكة –.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٥٥.

(٤) سورة التوبة: ١٠١.

(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٨٥ بتصرف.

تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1] الأمر بارتباط الخيل لإرهاب كل عدو لله وللمؤمنين يعلمونهم، ولا شك أن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لهم؛ لعلمهم بأنهم مشركون، وأنهم لهم حرب... وقيل: إن صهيل الخيل يرهب الجن، وإن الجن لا تقرب دارًا فيها فرس... **فإن قال قائل:** فإن المؤمنين كانوا لا يعلمون ما عليه المنافقون، فما تنكر أن يكون عني بذلك المنافقون؟؛ قيل: فإن المنافقين لم تكن تروعهم خيل المسلمين، ولا سلاحهم، وإنما كان يروعهم أن يظهر المسلمون على سرائرهم »[2].

وهذا لعمر الله جواب في غاية الغرابة من إمام مثل ابن جرير؛ لأن المنافقين كان يروعهم أن يظهر المسلمون على سرائرهم خوفًا منهم، بسبب ما يمتلكونه من خيل وسلاح، أي بسبب القوة التي كانوا يحوزونها، وهي القوة التي دفعتهم ابتداءً لإظهار الإيمان وإبطال الكفر.

ثم إن القول بأن المنفي علم أعيانهم مردود بما توافر من آيات القرآن الكريم التي ذكرت صفات المنافقين وصفًا يجعل معرفة أعيانهم أمرًا لا يصعب على مؤمن، فكيف برسول الله ﷺ؟! ألم يَرْوِ الإمام مسلم عن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « في أمتي اثنا عشر منافقًا لا يدخلون الجنة، ولا يجدونها ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَة، سراج من نار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم »[3]، « ولهذا كان حذيفة ﷺ يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، أي من تعيين جماعة المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره »[4]. ولهذا أرجح ما ذكره الإمام الألوسي من أن المعنى: « لا

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

(٢) جامع البيان للطبري ١٠/ ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين ٤/ ٢١٤٣، ٢١٤٤ (٩، ١٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٣٧٣.

تعلمونهم كما هم عليه من العداوة؛ لأنه مناسب لما تفيده الجملة الثانية من الحصر »[١]، ولا يعارض – في نفس الوقت – ما سبق ذكره.

والمتتبع للروايات المأثورة عنه ﷺ في تفسير بعض آيات القرآن الكريم يجد أنه كان يوضح بعض المبهم الوارد في هذه الآيات، فالأيام المعدودات مبهمة في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [٢] لكن الرسول ﷺ أوضحها في قوله: « الحج عرفات، الحج عرفات، أيام منى ثلاث ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، ومن أدرك عرفات قبل أن يطلع الفجر؛ فقد أدرك الحج »[٣].

والمسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مُبْهَمٌ في قوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [٤] لكن الرسول ﷺ أوضحه فيما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟، قال: فأخذ كفًا من حصباء، فضرب به الأرض، ثم قال: « هو مسجدكم هذا » لمسجد المدينة[٥].

أخرج الترمذي عن أبي سعيد أيضًا أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٠/ ٢٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٣.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة ٢/ ٢٠٣ (١٩٤٩) والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة ٤/ ٤٥٦ (٢٩٨٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) سورة التوبة: ١٠٨.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة ٢/ ١٠١٥ (٥١٤).

أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال آخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « هو مسجدي هذا »(١).

وبعض آيات الله ﷻ مبهمة في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (٢) لكنه ﷺ أوضحها في قوله: « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض »(٣).

والزيادة على المائة ألف مبهمة في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (٤) لكنه ﷺ أوضحها حين سئل عنها فقال: « عشرون ألفًا »(٥).

وذرية سيدنا نوح عليه السلام الذين جعلهم الله ﷻ هم الباقين مبهمة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (٦) لكنه ﷺ أوضحها في قوله: « حام وسام ويافث »(٧)، وقوله: « سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التوبة ٥/ ٦٨ (٣١١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) سورة النعام: ١٥٨.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ١/ ١٣٨ (٢٤٩).

(٤) سورة الصافات: ١٤٧.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الصافات، ٥/ ١٥٦ (٣٢٤٠) وقال: هذا حديث غريب.

(٦) سورة الصافات: ٧٧.

(٧) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الصافات ٥/ ١٥٦، ١٥٧ (٣٢٤١) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن بشير.

أبو الروم »[١].

ولما نزلت سورة الجمعة؛ سأل أبو هريرة ﷺ رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [٢] قائلاً: من هم يا رسول الله؟، فلم يراجعه حتى سأل ثلاثًا، قال أبو هريرة: وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»[٣].

سادسًا: بيان الناسخ:

يقصد ببيانه ﷺ للناسخ: بيانه الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب الشرعي المتقدم، على وجه لولاه لكان ثابتًا، مع تراخيه عنه[٤].

وقد رفض بعض العلماء القول بجواز نسخه ﷺ لحكم ثابت في القرآن الكريم استنادًا إلى ما يأتي:

١ – قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [٥]، فنون العظمة في ننسخ، وننسها، ونأت تدل على أن النسخ يكون من قبل الله ﷻ، والآية تقرر أن الناسخ لابد أن يكون خيرًا من المنسوخ أو مثله، والسنة ليست في مستوى القرآن حتى تنسخه.

٢ – قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٦]، فهذه الآية تدل على أن

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الصافات ٥/ ١٥٧ (٣٢٤٢) وإسناده ضعيف.

(٢) سورة الجمعة: ٣.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الجمعة ٣/ ٢٨٨ (٤٨٩٧).

(٤) انظر: المحصول في علم أصول الفقه للرازي ١/ ٥٢٦.

(٥) سورة البقرة: ١٠٦.

(٦) سورة النحل: ١٠١.

المبَدِّل هو الله ﷻ وحده، كما أن التبديل يكون بآية مكان آية، وليس بسنة.

٣ - أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة إلى القرآن الكريم هي البيان فقط، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١)، كما أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) يدل على أنه ﷺ لا يمكنه تبديل شيء في القرآن الكريم، وبالتالي لا يمكنه أن ينسخه.

وهذا القول مردود بما يأتي:

أولاً: أن سنة الرسول ﷺ وحي إلهي كالقرآن الكريم، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾(٣)، وقوله ﷺ: « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه »(٤)، ونسخ الوحي بالوحي جائز؛ لأنهما سواء، ولهذا قرن الله ﷻ الأمر بطاعته بالأمر بطاعة رسوله ﷺ، فقال: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾(٥)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(٦) ، إلى آخر تلك الآيات القرآنية التي تصرح بوجوب النزول على أمره وقضائه ﷺ، وتحذر من مغبة عصيانه.

ثانيًا: نون العظمة في ننسخ، وننسها، ونأت، وبدلنا لا تدل على ما قالوا؛ لأن السنة مثل القرآن في كونها من الله سبحانه، فهو الناسخ والمبدل في الحقيقة، والرسول ﷺ ليس له إلا التبليغ والبيان.

---

(١) سورة النحل: ٤٤.
(٢) سورة يونس: ١٥.
(٣) سورة النجم: ٣ : ٥.
(٤) الحديث سبق تخريجه.
(٥) سورة المائدة: ٩٢.
(٦) سورة الحشر: ٧.

ثالثًا: أن الخيرية والمثلية في قوله تعالى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ يقصد بهما الخيرية والمثلية في الحكم، وفي النفع للمخاطبين، وليست خيرية ومثلية في اللفظ؛ لأن القرآن الكريم ليس بعضه خيرًا من بعض.

رابعًا: ثبتت صحة بعض الأحاديث التي تدل على نسخ السنة النبوية للقرآن الكريم، فمن ذلك أن الحكم بالنسبة للمرأة التي ثبت زناها بالشهود العدول أن تحبس في بيت حتى يتوفاها الموت، بموجب قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾[1]، وهذا السبيل هو الناسخ الذي بينه الرسول ﷺ في قوله: « خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[2].

ومن ذلك أيضًا آية الوصية للوالدين والأقربين، وهي قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3]، فقد بين الرسول ﷺ نسخ الحكم الثابت بها في قوله: « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث »[4].

ويضاف إلى هذا الحديث آيةٌ تعضده في النسخ، وهي آية المواريث، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ

---

(١) سورة النساء: ١٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب حد الزنا ٣/ ١٣١٦ (١٢).

(٣) سورة البقرة: ١٨٠.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾: « فكانت الوصية كذلك حتى نسختها آية الميراث »[١]. وقال أيضًا: « كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع »[٢].

* * *

المبحث السابع

مجالات التفسير النبوي

يمكن من خلال تتبعنا للروايات المأثورة عن الرسول ﷺ في تفسير بعض النصوص القرآنية أن نتبين بعض مجالات هذا التفسير والتي تتمثل في التفسير القرآني، والتفسير القدسي، والتفسير اللغوي، والتفسير العقدي، والتفسير التاريخي، والتفسير الوعظي، والتفسير الفقهي. **وبيان ذلك تفصيلاً فيما يأتي:**

أولاً: التفسير القرآني:

أصح الطرق في التفسير كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان؛ فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان؛ فقد بسط في موضع آخر »[٣]. وقد فسر الرسول ﷺ القرآن الكريم بالقرآن نفسه، **ومن أمثلة ذلك ما يأتي:**

* لما قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٤]؛ قال: «الدعاء هو العبادة »، وقرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب ما جاء في نسخ الوصية للوالدين ٣/ ١١٣ (٢٨٦٩).
(٢) أخرجه البخاري في الوصايا، باب لا وصية لوارث ٢/ ١٦٩ (٢٧٤٧).
(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٣٦٣.
(٤) سورة غافر: ٦٠.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (١).

* لما جاء رجل إليه ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟، قال: « إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان »(٢).

* لما راجع عمر ﷺ رسول الله ﷺ في الكلالة، أي في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ (٣)، قال ﷺ: « يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء »(٤). ولما قال له رجل: يا رسول الله، ما الكلالة؟، قال: « تجزيك آية الصيف »(٥).

* فسر ﷺ قوله تعالى: « ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (٦) بقوله: مفاتح الغيب خمس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٧) »(٨).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ٢/ ٧٧ (١٤٧٩) والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة ٤/ ٤٥٢، ٤٥٣ (٢٩٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٧٢.

(٣) سورة النساء: ١٢.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه أبو داود في الفرائض، باب من كان ليس له ولد وله أخوات ٣/ ١١٩، ١٢٠ (٢٨٨٩) والترمذي في التفسير، باب ومن سورة النساء ٥/ ٣٣ (٣٠٥٣).

(٦) سورة الأنعام: ٥٩.

(٧) سورة لقمان: ٣٤.

(٨) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الأنعام ٣/ ١٨٢ (٤٦٢٧).

* لما نزل قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (١)؛ شق ذلك على الصحابة، فقالوا: يا رسول الله، أينا يلبس إيمانه بظلم؟، فقال ﷺ: « إنه ليس بذاك؛ ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) »(٣).

* لما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (٤)، فقالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟، قال: « لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون »(٥).

وهذا التفسير مستمد من سياق الآيات التي اشتملت على النص الذي سألت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها، حيث يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ (٦).

ثانيًا: التفسير القدسي:

يُقصد بالتفسير القدسي هنا: تفسيره ﷺ للنص القرآني بالحديث القدسي،

---

(١) سورة الأنعام: ٨٢.
(٢) سورة لقمان: ١٣.
(٣) الحديث سبق تخريجه.
(٤) سورة المؤمنون: ٦٠.
(٥) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة المؤمنون ٥/ ١١٨، ١١٩ (٣١٨٦).
(٦) سورة المؤمنون: ٥٧ : ٦١.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؛ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ؛ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ قال: مجدني عبدي؛ - وقال مرة: فوض إلى عبدي - ، فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ؛ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل »[1].

* أخرج البخاري في باب قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [2] عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « قال الله: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي؛ فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي؛ فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا »[3].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تبارك وتعالى، وقوله الحق: إذا هم عبدي بحسنة؛ فاكتبوها له حسنة، فإن عملها؛ فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإذا هم لسيئة؛ فلا تكتبوها، فإن عملها؛ فاكتبوها بمثلها، فإن تركها، وربما قال: فإن لم يعمل بها؛ فاكتبوها له حسنة، ثم قرأ ﴿ مَن

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ١/ ٢٩٦ (٣٨).

(٢) سورة البقرة: ١١٦.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ ٣/ ١٣٨ (٤٤٨٢).

جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [١] »[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [٣] »[٤].

* عن أنس بن مالك ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [٥]: « قال الله تبارك وتعالى: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني، فلم يجعل معي إلهًا؛ فأنا أهل أن أغفر له »[٦].

ثالثًا: التفسير اللغوي:

القرآن الكريم كتاب عربي مبين، لا يمكن معرفة معاني آياته بعيدًا عن اللغة التي نزل بها، ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ: « يأيها الناس، تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم؛ فإن فيه تفسير كتابكم »[٧].

قال الزركشي: « ومعرفة هذا الفن للمفسر ضروري، وإلا فلا يحل له الإقدام على كتاب الله تعالى. وقال يحيى بن نضلة المديني: سمعت مالك بن أنس يقول: لا أوتي برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنعام ٥/ ٥٠، ٥١ (٣٠٨٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سورة السجدة: ١٧.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٢/ ٣٢٤ (٣٢٤٤) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/ ٢١٧٤ (٢ : ٦).

(٥) سورة المدثر: ٥٦.

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة القيامة ٥/ ٢١٧ (٣٣٣٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٧) الموافقات للشاطبي ١/ ٢٦.

نكالاً. وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب... وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم؛ رجعوا إلى ديوانهم، فالتمسوا معرفة ذلك... واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها »[١].

ولهذا أمر الرسول ﷺ بتعلم معاني ألفاظ القرآن الكريم فقال: « أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه »[٢].

قال الإمام السيوطي: « المراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النجاة »[٣].

ومعلوم أنه ﷺ قد تعلم لغة العرب من جبريل عليه السلام، بدليل قوله ﷺ: « إن لغة إسماعيل كانت قد درسا، فأتاني بها جبريل فحفظتها »[٤]، ولهذا عقد الإمام السيوطي في كتابه المزهر مبحثًا عنوانه: « إيحاء اللغة إلى نبينا ﷺ»[٥].

لا عجب إذًا في وجود بعض الروايات التي فسر فيها رسول الله ﷺ بعض ألفاظ القرآن الكريم تفسيرًا لغويًا، **ومن أمثلة ذلك ما يأتي:**

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٩٣ : ٣٩٤.

(٢) ضعيف جدًا، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١١٧ (٢٩٩٠٣) والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٩، وقال: صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا، ورده الذهبي بقوله: بل أجمع على ضعفه، وآفته عبد الله بن سعيد المقبري، فإنه شديد الضعف. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ٣/ ٥٢٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٤٩.

(٤) ضعيف، أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث ص ١١٦، وعلته الانقطاع بين علي بن الحسين وعمر بن الخطاب ﷺ. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ١/ ٦٧٩.

(٥) انظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١/ ٣٤، ٣٥.

* قوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [١]: « إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار »[٢].

* قوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [٣] : « فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع »[٤].

* تفسيره المهل في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ [٥] بقوله: « كعكر الزيت، فإذا قربه إلى وجهه؛ سقطت فروة وجهه فيه »[٦].

* لما سئل ﷺ عن الشفع والوتر في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [٧]؛ قال: « هي الصلاة، بعضها شفع وبعضها وتر »[٨]. وأخرج الإمام أحمد قوله ﷺ: « والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر »[٩].

---

(١) سورة الحج: ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الحج ٥/ ١١٥ (٣١٨١) وقال: هذا حديث حسن غريب، وقد روى هذا الحديث عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) سورة الروم: ٢ : ٤.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الروم ٥/ ١٣٢ (٣٢٠٢) وقال: هذا حديث غريب حسن من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) سورة المعارج: ٨.

(٦) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار ٤/ ٢٦١، ٢٦٢ (٢٥٩٠) وفي التفسير، باب ومن سورة سأل سائل ٥/ ٢١٣ (٣٣٣٣) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين، ورشدين قد تُكلم فيه من قبل حفظه.

(٧) سورة الفجر: ٣.

(٨) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الفجر ٥/ ٢٢٦ (٣٣٥٣) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة.

(٩) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٢٧.

وهذا الحديث أصح إسنادًا من الحديث الذي قبله[١]، « وإذا ثبت من الشارع – عليه الصلاة والسلام – تفسيرهما ببعض الوجوه، فالظاهر أنه ليس مبينًا على تخصيص المدلول، بل وارد على طريق التمثيل بما رأى في تخصيصه بالذكر فائدة معتدًا بها، فحينئذ يجوز للمفسر أن يحمل اللفظ على بعض آخر من محتملاته لفائدة أخرى... وهو ميل إلى أن أل فيهما – الشفع والوتر – للجنس لا للعهد »[٢]. والظاهر أن ما تقدم من الحديثين من باب القطع بالتعيين دون التمثيل، وعندئذ يشكل أمر التوفيق بينهما، ولا يبقى أمامنا إلا ترجيح مدلول الحديث الثاني؛ لأن إسناده أصح من إسناد الحديث الأول[٣].

رابعًا: التفسير العقدي:

مفهوم العقيدة في القرآن الكريم ينتظم الإيمان بالله تعالى وحده ربًا ومعبودًا، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والإيمان بالملائكة، وبكل ما جاء عنهم في القرآن الكريم، والإيمان بالكتب، وبالرسل عليهم السلام، وباليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وحساب وحوض وصراط وجنة ونار، والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وقد فسر الرسول ﷺ نصوصًا قرآنية متعددة بأركان العقيدة الإسلامية، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة سحَّاءُ الليلَ والنهارَ، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خَلَق السماءَ والأرضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع »[٤].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٠٥، ٥٠٦.

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ١٢١.

(٣) انظر: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ ٣/ ٢٠٢ (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٢/ ٦٩١ (٣٧).

قال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح، وهذا الحديث في تفسير هذه الآية: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [١] الآية، وهذا حديث قد روته الأئمة ، يُؤْمَنُ به كما جاء، من غير أن يفسر، أو يتوهم هكذا »[٢].

* عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « جاء حبر إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، أو يا أبا القاسم، إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٣] »[٤].

* أخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [٥]، قال: « أتدرون أخبارها؟ »، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٤.

(٣) سورة الزمر: ٦٧.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ ٣/ ٢٦٠ (٤٨١١) ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/ ٢١٤٧ (١٩) واللفظ له، وقد قال البعض: إن ضحكه ﷺ كان إنكارًا لما قال الحبر، لكن الإمام النووي قال: ظاهر السياق أنه ضحك تصديقًا له، بدليل قراءته الآية التي تدل على صدق ما قال الحبر، والأولى في هذه الأشياء: الكف عن التأويل مع اعتقاد التنزيه؛ لأن كل ما يستلزم النقص من ظاهرها غير مراد. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، وفتح الباري ٨/ ٤١٣.

(٥) سورة الزلزلة: ٤.

على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا كذا وكذا، فهذه أخبارها »[١].

* وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [٢] قال ﷺ: « إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة – يعني العبد، من النعيم – أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد »[٣].

وروي أنه ﷺ سئل لما نزلت هذه الآية: وأي النعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟، فقال: « أما إنه سيكون »[٤].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ »، قالا: الجوع يا رسول الله، قال: « وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا »، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: « أين فلان؟ »، قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق [٥] فيه بُسْر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية[٦]، فقال له رسول الله ﷺ: « إياك

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ٥/ ٢٣٣-٢٣٤ (٣٣٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) سورة التكاثر: ٨.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ ٥/ ٢٣٦ (٣٣٦٩) وقال: هذا حديث غريب.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ ٥/ ٢٣٥ (٣٣٦٧) وقال: هذا حديث حسن.

(٥) العذق: غصن من نخل.

(٦) المدية: السكين.

والحلوب »، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا؛ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم »[١]. وفي رواية قال ﷺ: « خبز ولحم وتمر وبسر ورطب – ودمعت عيناه – والذي نفسي بيده، إن هذا لهو النعيم الذي تسألون عنه »[٢]. وفي رواية: « النعيم المسؤول عنه يوم القيامة: كسرة تقويه، وماء يرويه، وثوب يواريه »[٣].

وليس المراد حصر النعيم فيما ذكر، بل حصره بالنسبة إلى ذلك الوقت الذي كانوا فيه جياعًا، وما ورد في الروايات الأخرى من باب التمثيل ببعض أفراد خُصت بالذكر لأمر اقتضاه الحال، بدليل قوله ﷺ في غير رواية عند ذكر شيء من ذلك: « هذا النعيم الذي تسألون عنه » بمن التبعيضية[٤]. والسؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعم لا عن بعض دون بعض؛ لأن كل ما يهب الله سبحانه يجب أن يكون مصروفًا إلى طاعته، لا إلى معصيته[٥].

* وفي تفسير: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [٦] قال: ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟، ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟، قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ »،

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ٣/ ١٦٠٩، ١٦١٠ (١٤٠).

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٢٢٧.

(٣) جامع البيان للطبري ١٠/ ١٨٦.

(٤) انظر: روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٢٢٧.

(٥) انظر: جامع البيان للطبري ٣٠/ ١٨٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١١/ ٢٧٥.

(٦) سورة يونس: ٢٦.

وفي رواية: « ثم تلا هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ »[١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [٢]، قال ﷺ: « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله ﷻ من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ »[٣].

* أخرج البخاري في تفسيره ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [٤] عن أنس ﷺ قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء؛ قال: « أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر »[٥]. وقال ﷺ أيضًا: « الكوثر نهر في الجمة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج »[٦].

خامسًا: التفسير التاريخي:

يقصد بالتفسير التاريخي هنا: التفسير الذي يعنى ببيان نص قرآني يتحدث عن حقبة تاريخية مضت، أو حدث يتعلق بقوم سابقين، والروايات المأثورة عنه ﷺ، والتي تدل على هذا اللون من التفسير متعددة، **ومن أمثلتها ما يأتي:**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ١/ ١٦٣ (٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) سورة القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة القيامة ٥/ ٢١٨ (٣٣٤١) وقال: هذا حديث غريب.

(٤) سورة الكوثر: ١.

(٥) سبق تخريجه في ص ٣١.

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الكوثر ٥/ ٢٣٧ (٣٣٧٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في الزهد، باب صفة الجنة ٢/ ١٤٥٠ (٤٣٣٤).

* أخرج الترمذي قوله ﷺ في تفسير الآيات التي تحدثت عن المائدة التي أنزلها الله تعالى على قوم سيدنا عيسى عليه السلام[١]: « أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ، فمسخوا قردة وخنازير »[٢].

* وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[٣] قال ﷺ: « لما أغرق الله فرعون؛ قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبرئيل: يا محمد، لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر وأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة »[٤].

* ولما قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، قال: لا تقل له نبي، فإنه إن يسمعها تقول له نبي؛ كانت له أربعة أعين، فأتياه النبي ﷺ، فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾[٥]، فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف - شك شعبة - وعليكم يا معشر اليهود خاصة ألا تعتدوا في السبت »، فقبلا بين يديه ورجليه، وقالا: نشهد

---

(١) انظر: سورة المائدة: ١١٢ : ١١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة المائدة ٥/ ٤٤ (٣٠٧٢) وقال: هذا حديث غريب.

(٣) سورة يونس: ٩٠، ٩١.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، ومن سورة يونس ٥/ ٧٥ (٣١١٨) وقال: هذا حديث حسن، والحال: الطين كما في الحديث (٣١١٩) عند الترمذي.

(٥) سورة الإسراء: ١٠١.

أنك نبي، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود[١].

* أخرج الترمذي عنه ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾[٢] قال: « كانوا يخذفون أهل الأرض، ويسخرون منهم »[٣].

* وفي تفسير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[٤] قال ﷺ: « إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أُدْرَةٌ[٥]، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ؛ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ »[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل ٥/ ٩٦، ٩٧ (٣١٥٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة العنكبوت: ٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة العنكبوت ٥/ ١٣٢ (٣٢٠١) وقال: هذا حديث حسن. والخذف: رمي الحصاة من طرف الأصبعين.

(٤) سورة الأحزاب: ٦٩.

(٥) الأدرة: مرض بالخصية تنتفخ منه.

(٦) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٢/ ٣٦٧، ٣٦٨ (٣٤٠٤).

* وفي تفسير قصة أصحاب الأخدود التي وردت في سورة البروج قال ﷺ: « كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر، مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر؛ فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك؛ فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت؛ فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملكَ، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟، قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟، قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا

به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟، قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور[1]، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه، فذهبوا له، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟، قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟، قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري، فإنك على الحق »[2].

سادسًا: التفسير الوعظي:

يقصد بالتفسير الوعظي هنا: التفسير الذي يخاطب القلب والوجدان بكل ما من شأنه أن يؤثر فيهما تأثيرًا يدفع الإنسان للتجاوب مع القرآن الكريم،

---

(١) القرقور: هو السفينة الصغيرة.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود ٤/ ٢٢٩٩ : ٢٣٠١ (٧٣).

والعيش في ظلاله، والعمل بتوجيهاته وأحكامه، والروايات المأثورة عنه ﷺ، والتي تدل على هذا اللون من التفسير متعددة، ومن أمثلتها ما يأتي:

* قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله؛ إلا جعل الله يوم القيامة في عنقه شجاعًا»، وقرأ: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (١)، « ومن اقتطع مال أخيه المسلم بيمين؛ لقي الله وهو عليه غضبان »، ثم قرأ ﷺ مصداقه من كتاب الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) الآية (٣).

* أخرج الشيخان عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »، قال: ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٤)(٥).

* أخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ (٦)، قال: يدعى أحدهم؛ فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه، فيرونه من بُعد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم، فيقول لهم: أبشروا، لكل رجل منكم مثل هذا. قال: وأما الكافر؛ فيسود وجهه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويُلبس تاجًا، فيراه أصحابه، فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران: ٧٧.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ١٤ (٣٠٢٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) سورة هود: ١٠٢.

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ ٣/ ٢٠٣ (٤٦٨٦).

(٦) سورة الإسراء: ٧١.

لا تأتنا بهذا. قال: فيأتيهم، فيقولون: اللهم أخره، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا[١].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾[٢]، وهؤلاء في غفلة، أهل الدنيا وهم لا يؤمنون »[٣].

وفي رواية الترمذي زيادة: « فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة فيها والبقاء؛ لماتوا فرحًا، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها والبقاء، لماتوا ترحًا »[٤].

* أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: « يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد »، قالوا: يا رسول الله، وأينا ذاك الواحد؟، قال: « أبشروا فإن منكم رجلاً، ومن يأجوج ومأجوج

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل ٥/ ٩٢، ٩٣ (٤٧٣٠) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) سورة مريم: ٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ ٣/ ٢٢٥ (٣١٤٧).

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة مريم ٥/ ١٠٦، ١٠٧ (٣١٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ألفًا »، ثم قال: « والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة »، فكبرنا، فقال: « أرجوا أن تكونوا ثلث أهل الجنة »، فكبرنا، فقال: « أرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة »، فكبرنا، فقال: « ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»(١).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرأوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (٢) وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرأوا إن شئتم: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٣) »(٤).

* لما قرأ ﷺ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ (٥) قال: « يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت »(٦).

وفي رواية أخرى: « يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك؛ فهوا ذاهب

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج ٢/ ٣٤٨ (٣٣٤٨) ومسلم في الإيمان، باب قوله: « يقول الله لآدم: أخرج بعث النار » ١/ ٢٠١، ٢٠٢ (٣٧٩).

(٢) سورة الواقعة: ٣٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الواقعة ٥/ ١٩١ (٣٣٠٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) سورة التكاثر: ١.

(٦) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٣ (٣).

وتاركه للناس »[١].

سابعًا: التفسير الفقهي:

يقصد بالتفسير الفقهي هنا: التفسير الذي يعنى ببيان نص قرآني يتعلق بالأحكام الشرعية العملية المتعلقة بالمكلفين، والروايات المأثورة عن الرسول ﷺ، والتي تدل على هذا اللون من التفسير كثيرة متعددة، ومن أمثلتها ما يأتي:

* أخرج البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [٢] عن كعب بن عجرة ﷺ قال: حُملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: « ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ »، قلت: لا، قال: « صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك »، فنزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة[٣].

* أخرج الترمذي عن النبي ﷺ في قوله تعالى: « ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [٤] يعني صمامًا واحدًا »[٥].

وجاء عمر بن الخطاب ﷺ إليه ﷺ، فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: « وما أهلكك؟ »، قال: حولت رحلي الليلة، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ ؛ فقال:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٣ (٤).

(٢) سورة البقرة: ١٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾٣/ ١٤٦ (٤٥١٧).

(٤) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة ٤/ ٤٥٨ (٢٩٩٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

« أقبل وأدبر؛ واتق الدبر والحيضة »[١].

* عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كنا نتكلم في الصلاة، يُكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [٢]، فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام[٣].

* جاء رجل إليه فقال: يا رسول الله، أرأيت لو أن أحدنا رأى امرأته على فاحشة كيف يصنع؟، إن تكلم؛ تكلم بأمر عظيم، وإن سكت؛ سكت على أمر عظيم، فسكت النبي ﷺ فلم يجبه، فلما كان بعد ذلك، أتى النبي ﷺ، فقال: إن الذي سألتك عنه قد ابتليت به، فأنزل الله هذه الآيات في سورة النور: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ [٤]، حتى ختم الآيات، فدعا الرجل، فتلاهن عليه، ووعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال: لا والذي بعثك بالحق، ما كذبت عليها، ثم ثنى بالمرأة ووعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت: لا والذي بعثك بالحق، ما صدق، فبدأ بالرجل، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ثنى بالمرأة، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فرق بينهما[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة ٤/ ٤٥٩ (٢٩٩١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/ ٣٨٣ (٣٥).

(٤) سورة النور: ٦.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة النور ٥/ ١٢٠، ١٢١ (٣١٨٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

* في تفسير آيات الظهار في أول سورة المجادلة أخرج الترمذي عن سلمة بن صخر الأنصاري ﷺ قال: كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان؛ تظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فَرَقًا من أن أصيب منها في ليلي، فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني ذات ليلة، إذ تكشف لي منها شيء؛ فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله، لا نفعل، نتخوف أن ينزل فينا قرآن، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قال: فخرجت، فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته خبري، فقال: « أنت بذاك؟ »، قلت: أنا بذاك، قال: « أنت بذاك؟ »، قلت: أنا بذاك، قال: « أنت بذاك؟ »، قلت: أنا بذاك، وها أنا ذا، فامض فيَّ حكم الله، فإني صابر لذلك، قال: « اعتق رقبة »، قال: فضربت صفحة عنقي بيديَّ، فقلت: فقلت: لا والذي بعثك بالحق لا أملك غيرها، قال: « صم شهرين »، قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: « فأطعم ستين مسكينًا »، قلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشًا مالنا عشاء، قال: « اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقًا ستين مسكينًا، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك »، قال: فرجعت إلى قومي: فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ، فدفعوها إليّ[1].

* أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[2]، قال: « كانت المرأة

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق، باب في الظهار ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣ (٢٢١٣) والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المجادلة ٥/ ١٩٥، ١٩٦ (٣٣١٠) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) سورة الممتحنة: ١٠.

إذا جاءت النبي ﷺ حلَّفها بالله ما خرجت من بُغْض زوجي، ما خرجت إلا حبًّا لله ولرسوله »[١].

وسألت امرأة رسول الله ﷺ: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟؛ فقال: « لا تَنُحْنَ »، قالت: يا رسول الله، إن بني فلان قد أسعدوني على عمى، ولا بد لي من قضائهم، فأبى عليها، فأتته مرارًا، فأذن لها في قضائهن، قالت: فلم أنح بعد قضائهن[٢].

وفي رواية مسلم: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾[٣]؛ قالت امرأة: يا رسول الله، إلا آل فلان، فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم، فقال رسول الله ﷺ: « إلا آل فلان »[٤].

* أخرج البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾[٥] عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ فيه رسول الله ﷺ، ثم قال: « ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها؛ فليطبقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمره الله »[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الممتحنة ٥/ ٢٠٢ (٣٣١٩) وقال: هذا حديث غريب.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الممتحنة ٥/ ٢٠١، ٢٠٢ (٣٣١٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) سورة الممتحنة: ١٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة ٢/ ٦٤٦ (٣٣).

(٥) سورة الطلاق: ١.

(٦) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الطلاق ٣/ ٢٩٢ (٤٩٠٨).

خاتمة

يجدر بي وقد انتهيت من هذه الدراسة أن أذكر أهم نتائجها، والتي يمكن إيجازها فيما يأتي:

أولاً: كتب التفسير، وكتب السنة المطهرة، وكتب السيرة والتاريخ، وكتب علوم القرآن، وكتب أسباب النزول تضمنت روايات متعددة تدل على أن الرسول ﷺ قد فسر القرآن الكريم لأصحابه رضوان الله عليهم، قيامًا منه بمهمة البيان التي وكلها الله ﷻ إليه.

ثانيًا: حاجة القرآن الكريم إلى بيانه ﷺ جاءت من كونه كلام متكلم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه، ولا إمكان للوصول إليه، ومن كونه يخاطب جميع الناس على اختلاف مداركهم بكل ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم، مستثمرًا أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني.

ثالثًا: إذا ثبتت صحة الروايات المأثورة عن رسول الله ﷺ في التفسير؛ فإن مقتضى الإيمان يوجب قبوله، والتسليم له، وعدم تقديم أي تفسير آخر عليه.

رابعًا: إسهام الرسول ﷺ في تفسير الآيات الكونية محدود للغاية، بحيث يتناسب مع المستوى العقلي للبشرية في زمنه، وفي الوقت نفسه تحمل إسهاماته – في هذا المجال – عطاءات تتناسب مع نمو العقل الإنساني وتقدمه على مرّ الزمان، وتتابع الليالي والأيام.

خامسًا: لم يفسر الرسول ﷺ القرآن الكريم كله، والقول بأنه فسر الكثير من ألفاظه ومعانيه، أو القليل منها قول مرجوح، والراجح أن تفسيره ﷺ كان على قدر الحاجة في الزمن الذي تنزل عليه الوحي فيه، ولأولئك القوم الذين عاصروه؛ لأنهم لم يحتاجوا إلى ما يمكن أن يحتاج إليه من

جاء من بعدهم، ممن لم يشاهدوا الأحوال التي شاهدوها، ولم يعلموا العلم الذي علموه.

سادسًا: اقتبس الرسول ﷺ تفسير القرآن الكريم من مشكاة الوحي الإلهي، فهو تفسير رباني في مصدره، ومبرأ تمامًا من الرأي، وأثره على النص القرآني واضح في بيانه للمجمل، وتوضيحه لمشكل، وتخصيصه للعام، وتقييده للمطلق، وتوضيحه للمبهم، وبيانه للنسخ فيه.

سابعًا: الروايات المأثورة عنه ﷺ في التفسير تدل على تعدد مجالات هذا التفسير، فهناك تفسير قرآني، وتفسير قدسي، وتفسير لغوي، وتفسير عقدي، وتفسير تاريخي، وتفسير وعظي، وتفسير فقهي، وفي ذلك دلالة على عظم الثروة التفسيرية التي خلفها لنا رسولنا ﷺ، وهذا يفرض علينا الاهتمام بها، واستثمارها فيما يعود علينا بالنفع في دنيانا وآخرتنا.

والحمد لله رب العالمين

المراجع

القرآن الكريم

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار عالم المعرفة، القاهرة، بدون تاريخ.

- إحكام الأحكام لابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

- أسباب النزول للواحدي، دار الريان، القاهرة، بدون تاريخ.

- أسد الغابة لابن الأثير، دار إحياء التراث العربي ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م بيروت.

- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة، مكتبة السنة ١٤٠٨ هـ القاهرة.

- أصول الفقه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ١٩٩٠م بيروت.

- إعلام الموقعين لابن القيم، دار الحديث، القاهرة، بدون تاريخ.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي، دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ.

- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار الكتب العلمية ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م بيروت.

- تفسير البحر المحيط لأبي حيان، دار الكتب العلمية ١٤١٣ هـ بيروت.

- تفسير جزء عم للإمام محمد عبده، مكتبة صبيح ١٣٨٧ هـ القاهرة.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ.

- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

- التفسير والمفسرون، للذهبي، مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ القاهرة.

- تهذيب التهذيب لابن حجر، دار إحياء التراث العربي ١٤١٦ هـ بيروت.

- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الغد العربي ١٤١٠ هـ القاهرة.

- خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب، دار الشروق ١٤٠٢ هـ بيروت.

- دلالة الألفاظ عند الأصوليين، محمود توفيق، مطبعة الأمانة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م القاهرة.

- الرسالة للشافعي، مكتبة دار التراث ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م القاهرة.

- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥ هـ بيروت.

- زاد المسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م بيروت.

- الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني، مكتبة المعارف ١٤٢٠هـ الرياض.

- سنن الترمذي، دار الفكر ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م بيروت.

- سنن أبي داود، دار الريان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م القاهرة.

- سنن ابن ماجة، دار الحديث ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م القاهرة.

- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م بيروت.

- شرح النووي على صحيح مسلم، دار الخير ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م بيروت.

- صحيح البخاري، مكتبة الإيمان ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م المنصورة.

- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

- طبقات المفسرين للداودي، دار الكتب العلمية ١٩٨٣م بيروت.

- عيون الأثر لابن سيد الناس، مكتبة القدسي ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م القاهرة.

- فتح الباري لابن حجر، دار الريان ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م القاهرة.

- فتح القدير للشوكاني، دار الحديث ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م القاهرة.

- في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م بيروت.

- القاموس المحيط للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧ هـ بيروت.

- الكامل في ضعفاء الرجال لعبد الله الجرجاني، دار الفكر ١٤٠٩ هـ بيروت.

- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ بيروت.

- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- مجموع الفتاوى لابن تيمية، دار الرحمة، القاهرة، بدون تاريخ.

- المحرر الوجيز لابن عطية، دار الكتب العلمية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م بيروت.

- المحصول للرازي، دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨م بيروت.

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

- معجم المؤلفين لرضا كحالة، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

- مقدمتان في علوم القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.

- المقدمة لابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ.

- مناهل العرفان للزرقاني، دار الفكر ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م بيروت.

- الموافقات للشاطبي، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، بدون تاريخ.

- النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، بدون تاريخ.